مفهوم العدل في الشريعة الإسلامية

د. عبد السلام الترمانيني

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة

العدل إحساس يبعث على الارتياح في النفس لكل مايدفع الجور ويزيل الشعور بالظلم، ويتحقق بالمساواة. والمساواة تنصيف الشيء إلى نصفين، يتساويان إذا وقع فيهما التنصيف، بحيث لايزيد أحد النصفين عن الآخر ولاينقص، ولذلك قال الفقهاء المسلمون: إن العدل هو الإنصاف، أي التنصيف المتساوي، وقالوا: إنه التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، وقالوا: إنه المساواة في كل شيء من غير زيادة ولانقصان. ويتفق تعريف العدل في الشريعة الإسلامية وتعريفه في الشرائع الأخرى، وهو أن العدل يقوم على المساواة المحكمة. وقد اتخذ الميزان رمزاً له يتحقق بتساوي كفتيه، فإذا اختلت كفتاه فهو الجور والظلم، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: «وأقيموا الوزن بالقسط ولاتخسروا الميزان»(١) وقوله: «وزنوا بالقسطاط المستقيم»(٢) وقوله: «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة»(٣). والقسط هو القسمة بالتساوي أي العادلة، والقسطاط هو أضبط الموازين في تحقيق التساوي «العدل».

ويتحقق العدل بالقاعدة القانونية الملزمة، تقررها السلطة الحاكمة. وتختلف هذه السلطة باختلاف التفكير المثالي (الأيديولوجي) للأمة. إمّا أن يقررها الشعب الممثل بنوابه في النظام الديموقراطي، أو تقررها الدولة الممثلة بفرد أو حزب في النظام الاستبدادي، أو يقررها الإله في

النظام الديني. فهي إذن إما أن تصدر عن الخالق أو المخلوق. والفرق بين القانون البشري والقانون الإلهي أن الأول يتأثر بمصالح البشر وأهوائهم، فلا يخلو من ظلم أو جور. أما القانون الإلهي فهو قانون عادل، والله هو القائل: ﴿ إنّ الله لايظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾[٤]، ﴿ إن الله لايظلم مثقال ذرة﴾[٥]، ﴿وأنّ الله ليس بظلام للعبيد ﴾[٦]. وعقوبته التي يقررها أو يتوعد بها ليست ظلماً، وإنما هي العدل ينال به الظالم جزاء يتناسب مع ظلمه. وبهذا العدل يتحقق الخير في المكافأة والعقاب. ولذلك عرّف الإمام فخرالدين الرازي العدل بأنه القدر الواجب من الخير.

ومنذ أن وجد الإنسان في الجماعات القديمة حتى الآن نراه متعطشاً للعدل، فقد كان يعاني ظلم القوي، ثم أخذ يعاني ظلم القوانين البشرية المتأثرة بمصالح الفئة الحاكمة وأهوائها. وإنّ أعدل القوانين القديمة - كقانون حمورابي البابلي وقانون بوخوريس المصري وقانون مانو الهندي وقانون صولون اليوناني وقانون الألواح الروماني - كانت تفرّق بين طبقات الناس في توزيع العدل ومعها قوانين القرون الوسطى. ولاتخلو أكثر القوانين المعاصرة من استئثار الطبقة الحاكمة بالمنافع والمصالح.

من أجل ذلك واجهت القوانين البشرية منذ القديم تيارين: أحدهما فلسفي والآخر ثوري؛ أما التيار الفلسفي فإننا نجده في الآراء الفلسفية المختلفة التي كانت تضع معايير للمشرع الذي يجب أن يناط به إصدار القوانين، وذهب بعضها إلى أن المشرع هو الحكيم (الفيلسوف) وأن الحكماء هم أصحاب الحق في التشريع. ويرى آخرون أن الأغلبية العددية في الأمة هم أصحاب الحق في التشريع. واتهم فريق من الفلاسفة القوانين البشرية - مهما حققت من عدالة - بالظلم والجور، ودعوا إلى الأخذ بقانون الطبيعة، وهو القانون العام الشامل الذي تتساوى في أحكامه جميع المخلوقات، وارتقى الخيال ببعضهم إلى تصور مدينة يحكمها هذا القانون، يسودها العدل وتغمرها السعادة أسموها المدينة الفاضلة أو الفردوس المفقود.

أما التيار الثوري فإننا نجده في تلك الثورات التي يحدثنا التاريخ عن بعضها ويُغفل الكثير منها، حتى قيل إن التاريخ سجل لصراع العدل ضد الظلم، يرمي إلى تبديل مجتمع تسنده قوانين جائرة، وهو صراع مستديم، فإما أن يزيد المنتصر في ظلمه أو ينقلب إلى ظالم، وفي كلا الحالين لايتحقق العدل، ويبقى القانون الملزم هو قانون الجانب الأقوى، لأن القوة لايمكن أن تلهم العدل.

وينتج عن ذلك أحد أمرين: أن يستسلم الجانب الضعيف وقد يكون هو الأغلبية

الكبيرة ويقبل قانون القوي، أو أن يتربّص بالقوي ويتحينّ الفرصة للثورة عليه.

والاستسلام من شأنه أن يسلب الأمة كرامتها وعزّتها، ويشيع فيها التزلّف والنفاق ابتغاء مرضاة الحاكم. والثورة من شأنها أن تشغل الأمة بالدسائس عن العمل المنتج، وتغمرها في جو من القلق النفسي والاضطراب الداخلي يشل نشاطها، ويفتح فيها ثغرة لعدو خارجي يتربّص بها الدوائر، ويثير فيها الفتن ويسخّرها لمصالحه وأهوائه. وفي الماضي والحاضر أنماط من هذه المشاهد تغنينا عن ضرب الأمثال.

ومن هنا نرى أن مفهوم العدل في النظم والشرائع البشرية يقوم على القوة، وهو مفهوم يختلف عنه في الشريعة الإسلامية، ويرجع ذلك إلى الاختلاف في معيار القوة.

ومن المسلّم به أن القوة ظهير الحق، والإنسان من طبعه الاستئثار. فإذا ترك لطبعه فلا ينصاع للحق، ولايسلم به إلاّ إذا أكره عليه. ومعيار القوة في النظريات والمذاهب الغربية هو القوّة المادية التي يبتدعها العقل الإنساني. والإنسان في مفهوم تلك النظريات والمذاهب من خلق الطبيعة، والطبيعة في نظرها قدرة صمّاء مجرّدة عن الإدراك والتدبير، عاجزة عن كبح جماح الأهواء والشهوات. ومن أجل ذلك بقي العقل هو وحده المتسلّط تتقاذفه الأهواء بما يشتهي. وقد سعى الفلاسفة والحكماء لوضع مبادىء أخلاقية تقيّد سلطان العقل، غير أنها عجزت عن التغلب على سلطانه المتحكّم بقدرته المطلقة، وبقيت القوة وحدها هي المعيار الأصيل في تسوية كل نزاع بالقهر والإكراه.

وأضحى العدل رمزاً للإحساس المكبوت، وأملاً حلواً يتردد صداه على لهوات الشعراء، وينعكس في خيالات الفلاسفة وآراء المفكرين.

أما الإسلام فقد جعل معيار القوة الإيمان بقدرة الله لا بقدرة الإنسان، وجعل العقل كاشفاً لهذه القدرة، فالإيمان بقدرة الله هو ظهير العدل، وبه يتساوى الحاكم والمحكوم في الخضوع لها، وبذلك تزول فوارق القوة بجميع مظاهرها المادية والمعنوية، وتكون عوناً صادقاً ونزيهاً للعدل في حماية الحق والقيام بالواجب.

فالإيمان إذن هو خضوع مطلق لقدرة الله ومراقبته، يلازم القلب والعقل والضمير، ويشحذ الإحساس بالعدل عند الحاكم والمحكوم، وبه يكتمل المثل الأعلى في حياة كريمة يتساوى فيها المؤمنون، ولايخشون فيها جوراً ولاظلماً.

فقد روي أن عامل حمص كتب إلى الخليفة عمر بن عبدالعزيز يستأذنه في تسوير المدينة، فأجابه: «سوّرها بالعدل».

وفي هذا القول حكمة بالغة في سياسة الحكم، فالعدل من شأنه أن يقيم بين

الحاكم والمحكوم تحالفاً وتآلفاً، تقف الأمة من ورائه عصبة قوية للدفاع عن حقوقها، وتكون هي السُّور المنيع لرد الاعتداء. والظلم من شأنه أن يقيم فجوة بين الحاكم والمحكوم، لاتنفع معه الأسوار والحصون.

لهذا كان الإيمان بقدرة الله الأساس الذي يقوم عليه مفهوم العدل في الشريعة الإسلامية، وهو معيار داخلي كامن في النفس، مستقر فيها، يقوم على اعتبار الإنسان جزءاً من هذا الكون الكبير الذي أبدعته قدرة عاقلة مدركة عليمة حكيمة مدبِّرة مبصرة، وهي التي وهبت الإنسان الحياة والحرية، وضمنت له حمايتها بقضائها العادل المحتوم.

من هذا المنطلق اختلف مفهوم السلطة في الإسلام عن مفهومها في المذاهب والنظريات. فمفهوم السلطة في الإسلام مستمد من مفهوم الإيمان، وهو مفهوم واحد يشمل الأفراد والمجتمع والدولة ويشمل الحاكم والمحكوم. ونظرية الحكم في الإسلام تقوم على اعتباره تكليفاً بعبء يجب أن يتحمله أشد الناس إيماناً وأكثرهم خشية وخضوعاً لله تعالى وأقواهم على حفظ حقوق العباد، وبذلك يكون المحكوم في مأمن من عَسْف الحاكم واستبداده؛ فقد روي أن عمر بن الخطاب قال لأبي مريم الحنفي، وكان قتل زيداً بن الخطاب أخا عمر في حرب بني حنيفة المرتدين سنة ١١ للهجرة: «والله لايحبك قلبي أبداً حتى تحب الأرض الدم».

فقال أبو مريم لعمر: «ياأمير المؤمنين، هل تمنعني حقاً لذلك؟» قال: «لا». قال: «إذن فحسبي». من ذلك نرى أن الإيمان هو الينبوع الصافي الذي يستمد منه الحاكم سلطته لتوفير العدل. وبهذا تختلف طبيعة السلطة في الإسلام عن طبيعتها في المذاهب والنظريات الدستورية. فالحكم في الإسلام ليس ديكتاتورياً يستقل به فرد أو مجموعة من الأفراد، وليس ديموقراطياً خالصاً بمعنى أن الأغلبية تقرر ماتشاء، وإنما هو نمط فريد مستمد من طبيعة الإيمان المستقر في الضمير، فهو في حقيقته سلوك مفروض على الحاكم والمحكوم، يصدر عن العقل المؤمن ليكون محققاً لمصالح الفرد والمجتمع على أساس من المساواة. من أجل ذلك **لايمكن التفريق في الشريعة الإسلامية بين حقوق الحاكم وحقوق المحكوم إلاّ من حيث توزيع السلطة التي يقتضيها تنظيم الدولة.** ومن أجل ذلك اختلفت سمة العدل ومفهومه في الإسلام عن سمته ومفهومه في الشرائع الأخرى. ولما كان كل من الحاكم والمحكوم مرتبطاً برباط واحد هو رباط الإيمان بشريعة الله، فمن المسلَّم به ألاّ يحيد الحاكم في تطبيقها عما تقضي به، وأن يقبل المحكوم بحكمها؛ لهذا كان التفقّه بأحكام الشريعة علماً مفروضاً، ليلزم كل فرد نفسه بالحق بقوة الإيمان لابقوة السلطان، ليكون هو القاضي على نفسه فيما لها أو عليها. وفي مدينة الرسول العظيم

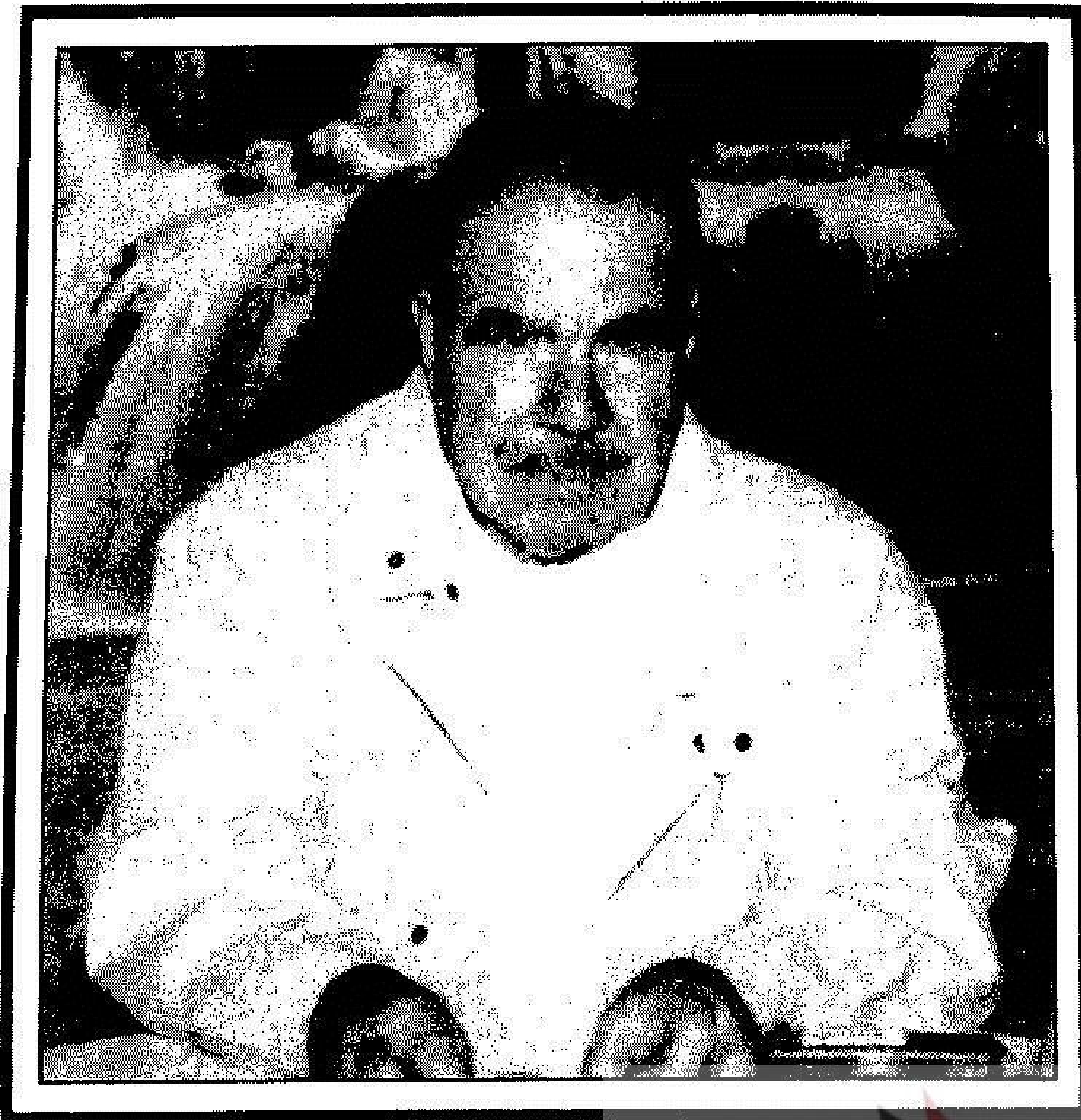
صلى الله عليه وسلم لا في المدينة الفاضلة التي تصوّرها الفلاسفة نرى الناس يسألون عن حكم الله، ويسلمون به دون خصومة. وفيها نرى رجلاً يسعى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيقر أمامه بالزنا، ويطلب منه أن يطهّر نفسه الآثمة. وبذلك جعل الإسلام العدل منزهاً عن الهوى، بريئاً من العصبية، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا. وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾[7]. وقد روى الواحدي في كتابه «أسباب النزول» السبب في نزول هذه الآية أنّ رجلين أحدهما غني والآخر فقير، اختصما إلى النبي صلى الله عليه وسلّم فضلع مع الفقير (أي مال إليه) ورأى أن الفقير لايظلم الغني، فأبى الله تعالى إلاّ أن يقوم بالقسط، وأن ينظر في القضية نظرة موضوعية لا نظرة شخصية، لكن أن يكون أحدهما غنياً والآخر فقيراً فالله أولى بهما[8].

فالعدل إذن يتحقق بحكم الشرع أو القانون، ويتحقق بحكم الإنسان على نفسه بدافع من الإيمان، فكل ملتزم بعقد يجب أن يفي بالتزامه عملاً بالأمر الإلهي: ﴿ يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾[9] فالله سبحانه وتعالى يخاطب المؤمن بواجب الوفاء بدافع من إيمانه، وبه يحق الحق ويحكم على نفسه بالعدل، وبه تتمثل شخصية الإنسان الكامل.

وكما يقضي الإيمان بأن يعدل الإنسان مع غيره، فإنه يقضي بأن يعدل مع نفسه، وأن يحافظ على حياته بالحفاظ على بدنه، فيمده بكل مايمده بالقوة العقلية والبدنية، فلا يرهقه بما يضنيه، ولا يتناول مايضره ويؤذيه، فإن فعل ظلم نفسه ووجب عليه إن كان مؤمناً أن يعدل معها، وبهذا كله نجد الإسلام قد ضمن بالإيمان سلامة الفرد والمجتمع، ليجعل من المسلمين خير أمة أخرجت للناس. ■

الحواشي :

١ – سورة الرحمن ، الآية ٩.
٢ – سورة الشعراء ، الآية ١٨٢.
٣ – سورة الأنبياء ، الآية ٤٧ وتمامها: «... فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين».
٤ – سورة يونس ، الآية ٤٤.
٥ – سورة النساء ، الآية ٤٠ وتمامها: «... وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً».
٦ – في سورة آل عمران ، الآية ١٨٢: «ذلك بما قدمت أيديكم وأنّ الله ليس بظلام للعبيد». وفي سورة الحج، الآية ١٠: «ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد».
٧ – سورة النساء ،الآية ١٣٥.
٨ – أسباب النزول للواحدي، تحقيق السيد أحمد صقر، ط ١٣٨٩/ ١٩٦٩.
٩ – سورة المائدة ، الآية ١ وتمامها: «... أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا مايتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم إنّ الله يحكم مايريد».



لقاء مع الدكتور

عبدالله عبدالدايم

حاوره: محمد فاتح زغل

«أشعر وأنا في خاتمة الدرب، أن عليّ أن أبدأ من جديد وأن الأفكار تزدحم في صدري على حد قول الجاحظ - فلا أدري أيها أختار... أجل أشعر أنني لم أوفِ الإنسان العربي حقه من عطائي، وأن عندي الكثير مما أحبسه عنه، وأن الأيام أضيق من آمالي ورؤاي».

«عبدالله عبدالدايم»

■ كانت لفتة كريمة وطيبة تلك الزيارة التي قمتم بها أنتم وضيوف جائزة سلطان بن علي العويس الثقافية إلى مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي، هذا الصرح الثقافي الذي أراده مؤسسه أن يكون قدوة لتكون لنا في كل المدن العربية والإسلامية صروح ثقافية تقول للأجيال ماكان من الأجيال، وللأحفاد ماكان من الآباء.. ما انطباعاتكم التي سجلتموها عن هذا الصرح الثقافي..؟

مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث يحدث عن نفسه، والزيارة التي قمنا بها أفسحت وكشفت عن جوانبه المتعددة، ونشاطاته القابلة للتطور التي نرجو لها النجاح والتقدم والاستمرار؛ ومن الحق أن نقول إن الإنسان ليعجب وهو يرى مثل هذا الجهد الذي يرعاه فرد وينهض به وحده في ميدان الثقافة من خلال هذه المؤسسة، ترى هل بدأنا عصراً جديداً في ميدان الحضارة والتقدم..؟

ترى هل بدأنا عصراً جديداً في ميدان الحضارة والتقدم..؟

إن أبرز سمة من سمات الحضارة هي الاهتمام بالثقافة والعناية بها، وعندما نجد هذه الأزهار الثقافية المتفتحة هنا وهناك في عالمنا العربي، التي تظهر أحياناً عفو الخاطر وتفاجىء الناس، ندرك أن صفحة جديدة في حياة الأمة العربية قد فتحت، وهذا يدعو لآمال كبيرة في الثقافة فكل شيء ينفد إلا الثقافة، الثقافة هي العمل الباقي، هي الشجرة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، فهي تعني الإنسان.. تعني التأثير في الإنسان.. بل تعني توظيفه واستخدام طاقاته واستخراج قواه وإمكاناته إلى أقصى مدى كي يسهم في بناء أمته.

إن بناء الحضارة يستلزم أول مايستلزم إيماناً بالهدف، وحماسة من أجل هذا البناء، وهذا لايتحقق إلا بالثقافة. قد تقوم المصانع، وقد تنشأ المزارع، وغير ذلك من المؤسسات المادية، غير أن إقبال الناس على العمل في هذه المجالات جميعها أمر ثقافي، أمر تضطلع به الثقافة، بل إن مواقف الناس واتجاهاتهم وأنماط سلوكهم ونظرتهم إلى الكون والحياة ومدى اكتراثهم وعدمه هي التي تتحكم في نهاية الأمر في أية نهضة من النهضات.

فالثقافة هي العنصر المغذي لكل عطاء، وهي جوهر الحضارة ومحركها، وبدونها لاتكون حضارة فاعلة، وغايتها في النهاية العمل من أجل الإنسان وخدمته، وهذا مطلب الثقافة التي تعمل على توليده وإعطائه معنى، وغايته الإنسان.

الحديث يطول.. وماهي إلا شجون وشؤون خطرت لي وأنا أنظر إلى هذه المؤسسة

الرائعة وإلى هذه البدايات المبشرة بالخير في مجال العطاء الثقافي ويحلو لي أن أردد بيتاً قديماً يحضرني بهذه المناسبة.

يبني الرجال وغيره يبني القرى
شتان بين قرى وبين رجال

■ **في كلمتكم التي ألقيتموها عند تسلمكم جائزة سلطان بن علي العويس الثقافية انتهيتم فيها إلى أن الثقافة هي وسيلة التنمية وغايتها.**

في ضوء هذا المفهوم سيكون لكل تنمية ثقافة محددة، ومن طبيعة الأمم والشعوب أن تدافع عن هويتها الثقافية لتأكيد ذاتها.. وأرى أن هذا الدفاع سيجعلها منكمشة ومنغلقة.

هل تتوقعون أن تنفرد الأمم والشعوب بهذه الخاصية فتكوّن ثقافة وتنمية خاصتين بها؟ أم ترون أن تعمل كل ثقافة على أن تندمج في التجارب الثقافية الأخرى مولدة مركباً أصيلاً وجديداً..؟

■ هذا السؤال لعلّه يحتل المنزلة الأولى في عصرنا الآن من خلال واقع هذا العصر ومشكلاته، وعدم اهتدائه إلى صيغة إنسانية سليمة.

وسأبدأ بالإجابة عن التنمية وهو الشق الأول من السؤال..

قبيل الحرب العالمية الثانية وبعدها برز اتجاه يدعو إلى التوظيف والاستثمار في الإنسان ويؤكد حقيقة - كانت تعد جديدة - مفادها أن رأس المال الإنساني هو أثمن وأغلى رأسمال، بل هو أكثر رؤوس الأموال عطاء وإنتاجاً؛ وقامت دراسات في أمريكا وإنكلترا وفرنسا بشكل خاص (دينسون.. Deneson وغيره) بحثت في نمو الدخل القومي وعناصره، وكشفت عن حقيقة مفادها أن أهم عامل في الدخل القومي هو العامل الإنساني، وهو عامل إعداد وثقافة وتربية - إعداد العمال وتربيتهم - ونتج عن ذلك الاهتمام بالتخطيط التربوي الثقافي إلى جانب التخطيط الاقتصادي والاجتماعي الشامل. ولم يعد التخطيط الاقتصادي قاصراً على نفسه فقط - كما كان شائعاً - بل أصبح التخطيط للتنمية جزءاً لايتجزأ من التخطيط الشامل، وأصبح أي تخطيط شامل يقصر عن مداه إذا لم يرافقه تخطيط للتنمية؛ أي للعامل البشري نفسه. وهذه مرحلة أولى. ثم خطا القوم مرحلة ثانية، فمن أجل أن يكون للإنسان دور كامل في التنمية، لابد من الثقافة، ولابد من تنمية الثقافة بالمعنى الواسع للتنمية. وبدأ الاهتمام بمواقف الناس واتجاهاتهم ونظرتهم إلى الحياة، بالمعنى الواسع للثقافة - المفهوم

الثقافة هي العمل الباقي، هي الشجرة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، فهي تعني الإنسان.. تعني التأثير في الإنسان..

الأنثروبـولـوجي - بل لأنماط السلـوك المادية والمعنـوية السـائدة في مجتمع من المجتمعات، التي تميّزه عن سواه.. وهكذا بدأ الاهتمام بالثقافة وسيلة أساسية من وسائل التنمية. وبدءاً من مؤتمر مكسيك - بشكل خـاص - خطـا القـوم خطـوة ثالثـة، فقالـوا: من أجل التنميـة لابد أن تكـون هنـاك ثقافـة مـواتيـة، بل ينبغي لتتحقق التنميـة على الـوجـه الأفضل أن تكون الثقـافة وسيلة التنمية؛ بل غـايتها أيضـاً.. وهـي القفـزة الأسـاسيـة والرئيسية.

ينبغي لتتحقق التنميـة على الـوجـه الأفضل أن تكون الثقافة وسيلة التنمية؛ بل غـايتهـا أيضاً..

ولقد كشفت تجربة البلدان المختلفة بصورة خاصة وتجربة البلدان النـاميـة أن كل الجهـود التي بذلت في مشروعـات صناعية أو زراعيـة تربـوية أو في تـوظيف الأموال لم تـؤد إلى ماينبغي أن تؤديـه من المستـوى الحضاري للإنسان، بل وإنها كثيراً ماكانت تتم على حسـاب الإنسان... ولذلـك ظهر هذا الشعار بأن الثقافـة هي غاية التنمية وليست وسيلتها فقط.. بـل هي وسيلتها وغايتهـا في آن معاً.. وفي الاجتماع الأخير الذي عقد الشتاء الماضي للجنة التربية من أجل التنميـة أو ثقـافـة من أجل التنميـة بـرئاسـة «دي كـويـلار»، نـوقش هـذا الموضـــوع بعمـق.. وانتهى إلى ضرورة وضـع عقد جديد هو العقد الثقافي، بمعنى أن يتعاقـد الناس على أن تكـون الثقافـة هي غـايتهم وليسـت المادة أو الآلـة، بل إننـا نقـرأ على لسـان «دي كـويـلار» مـامفـاده «أن مهمتنـا ليسـت سيطـرة الإنسـان على الآلـة، أو سيطـرتـه على المجتمع، بل إن المهمـة تكمن في السيطرة على السيطرة» وهذا معنى عميق جداً.

لقد غـدا تحكّم الآلة، والتكنولـوجيا، وتحكّم المعلومـات نوعاً من السلطـان المفروض على الإنسان يكاد يعصـف به.. والمطلوب هـو السيطرة على السيطـرة.. ولقـد بيّن «توفلـر Toffler» في كتـابـه «ثـورة المستقبل» معنى ذلك فقال: «إننا في حاجة إلى ثقـافـة وحضـارة تـوضع من أجل الإنسان، لايضعهـا (البيروقراطيـون) أو الصناعيون، وإنما تضعهـا مجموعة من الكفاءات من أجل الإنسان نفسه».

إننا بحاجة إلى ثقافة الإنسان أولاً وقبل كل شيء، ونحن في غنى عن تقـدم لايأخـذ باعتبـاره حياة الإنسـان، فالتقـدم ليس غـايـة بحـد ذاتـه، وإنما الغـايـة هي الإنسان.. والتقدم فيه خير متقـدم وشر متقـدم، وعلينـا أن نعـرف كيف نضبط هذا وذاك، ونسيطر على هذا وذاك، وهذا لن يتأتى إلا بالثقافـة، فتعود المسألة من جديد مسألة ثقافية...

أما الشق الثاني من الإجابة المتعلق بالثقافة

القومية فأرى أن الثقافة القومية ليست اكتشافاً، وإنما هي بناء.. لو كانت الثقافة اكتشافاً، أو كانت مجرد الطبقات الجيولوجية الماضية لأمة من الأمم لصح ماقلت.. ولوقعنا في إشكال الثقافات التي تتقوقع على نفسها وتتصارع؛ لكن الثقافة ليست اكتشافاً، كما أنها ليست عودة إلى الماضي، بل هي بناء نبنيه من مقومات أساسية، والتراث أحد هذه المقومات، بل هو منّا وفينا لانستطيع أن نخلعه، لكن بعد أن نجدده وننضو عنه ما علق به من شوائب، ونحيي ونبرز قيمه الحية.

والعنصر الثاني من عناصر الثقافة هو الحاضر.. الحاضر الذي نحن فيه يولّد ثقافة معينة، ولاأعني بذلك (العادات والتقاليد وغيرها)، فهذه تتغير حكماً تبعاً لتغير الزمن، بل هي الأفكار والمفاهيم السائدة، فالثقافة التي كانت شائعة في عصر جرير والفرزدق مثلاً هي ليست من ثقافة اليوم، وإن كنا لانزال حتى الآن نتلقف الكثير من ثقافات ذلك العصر بعجره وبجره.. قادني إلى هذا الكلام جملة الفرزدق لجرير عندما هجاه بأنه القين وابن القين في قوله:

إني بنى لي في المكارم أولي
ونفخت كيرك في الزمان الأول

إذ لايزال هذا المفهوم سائداً في بعض بلادنا العربية حتى يومنا هذا ويعتبر بعضهم المهنة امتهاناً. فهذه الرواسب كما يقول بقيت واستمرت رغم زوال الأسباب التي دعت إلى استمرارها، فلا بد إذن من ثقافة حديثة، تأخذ الإنسان بعين الاعتبار.

إننا بحاجة إلى ثقافة الإنسان أولاً وقبل كل شيء، ونحن في غنى عن تقدم لايأخذ باعتباره حياة الإنسان، فالتقدم ليس غاية بحد ذاته، وإنما الغاية هي الإنسان..

والعنصر الثالث من عناصر الثقافة هو المستقبل.. نحن لسنا منفعلين مع هذه الثقافة، بل فاعلون أيضاً، ونريد أن نبني ثقافتنا بحيث تصلح للقرن الحادي والعشرين.. ومتطلبات هذا المستقبل قد تتطلب مواقف وقيماً جديدة، وفكراً وأسلوباً متطورين.

والعنصر الرابع والأخير من عناصر بناء الثقافة هو العالم حولنا، نحن لسنا في عزلة عن العالم، ولو أردنا ذلك لما أمكن. وهناك جوانب إيجابية كثيرة في الحضارة العالمية لابد أن نتفاعل معها لأنها جزء من البناء الثقافي، فنحن لسنا منغلقين. ولا ماضويين فقط فنغلق الأبواب دون المستقبل، ولسنا كذلك المستقبل، فننقطع عن الماضي. نحن نأخذ الأمور بواقعها، ونبني ثقافتنا من عصارة هذه

نريد أن نبني ثقافتنا بحيث تصلح للقرن الحادي والعشرين.. ومتطلبات هذا المستقبل قد تتطلب مواقف وقيماً جديدة، وفكراً وأسلوباً متطورين

الأشياء جميعاً.

■ **في العالم اليوم جدل مستمر حول النظام العالمي الجديد، والمساهمة العربية حول هذا الجدل تبدو محدودة، وكذلك هي حال مساهمة بلدان العالم الثالث.. في هذه الحالة هل سيتحقق الحوار المطلوب..؟ حوار الحضارات لتقديم صيغ حضارية من أجل الإنسان؟**

■ جوهر السؤال عندي : أيهما أكثر عطاء للإنسانية والإنسان: القومية أم العالمية..؟

فالإنسان لايتفتح إنساناً كاملاً إلا في هوائه القومي، وفي تربته القومية، ولايعطي كامل عطائه إلا من خلال حياته القومية، ومن أجل بناء مشروعه القومي، أو حضارته القومية.

هناك اتجاهات تفرضها دول كبرى تقول بالاتجاه العالمي الشامل، وتزعم أن هذا الاتجاه هو الاتجاه الإنساني المطلوب. ولاأريد أن أطيل الحديث فيه - فقد غدا من المعروف أن هذا الاتجاه العالمي وفي مجالاته كلها سواء في الإعلان أو في الاقتصاد أو في المال أو في التكنولوجيا أو في الثقافة..إلخ - بدأ يظهر ضعفه، وبدأت ترفضه كثير من الدول المتقدمة، بل يرفضه كثير من الداعين له، إذ بدؤوا يرون فيه شكلاً جديداً من أشكال الهيمنة الثقافية.. هيمنة الدول الأقوى على الأضعف، فباسم العالمية تهيمن دولة أو دول على العالم، أما الإنسانية والإنسان واحترام الإنسان، وديمقراطية الإنسان.. فإنني أعتقد أننا نبتعد عنها في إطار هذه العالمية يوماً بعد يوم، فلا هي قائمة في حدود هذه الدول - كما نعلم - ولا هي قائمة خارج حدود هذه العلاقات بين الدول.. أما الاتجاه القومي فهو بحكم التعريف اتجاه إنساني بمعنيين:

الأول أن الإنسان لايعطي كامل عطائه إلا من أجل كيان يؤمن به، وأمة يشعر بالارتباط بها، وبثقافتها وحياتها ومستقبلها ومصيرها، فكما أنه يعمل من أجل أسرته، ومدينته، فهو يعمل بعد ذلك في إطار اتساع هذه الحلقات عبر التاريخ، من أجل أمته التي يرتبط بها بأشياء كثيرة أهمها التراث والمستقبل والمصير، فالإنسان لايتفتح إنساناً كاملاً إلا في هوائه القومي، وفي تربته القومية، ولايعطي كامل عطائه إلا من خلال حياته القومية، ومن أجل بناء مشروعه القومي، أو حضارته القومية.

والمعنى الثاني أن القومية في بلدان العالم الثالث وفي البلاد العربية خاصة لم تكن لتعني ولا يمكن أن تعني التفوق أو التسلط أو الشوفينية أو الاستعلاء. نحن لانقول باستعلاء أمة على أمة ولانقول بالشوفينية أبداً، ولانقول بالعدوان بين

الأمم، بل على العكس نحن نؤمن بأن قيام الحياة القومية السليمة في أي أمة من الأمم من شأنه أن يجعلنا نصل إلى حضارة عالمية تتألف من مجموعة من القوميات المتعاونة والمتفاعلة والمتحاورة من أجل الإنسان وسعادة الإنسان، وأعتقد أنهم عندما يتحدثون عن حوار الحضارات لايعنون شيئاً غير ذلك. وعندما قام العرب في ماضيات أيامهم، لاسيّما في عصر الترجمة والتأليف بمزج الثقافات، والاقتباس من الدول المختلفة وضمها إلى تراثهم الأصيل، فإنما أغنوا الإنسانية بذلك كما اغتنوا هم بذلك التراث.

■ **التربية والثقافة صنوان لايفترقان، والحديث عن التربية ذو شجون.. بين حدودها التي لابدّ أن تقف عندها.. وبين وعودها التي تبشر بها.**

ترى وبحكم عملكم في هذا المجال – هل نغلو إذا قلنا إن التربية بين الحدود والوعود ظلت دون جدوى..؟

■ أنت تدرك من العنوان.. التربية بين حدودها ووعودها أن ثمة مشكلة في الأصل تكاد تكون نظرية وهي التساؤل – هل يستطيع النظام التربوي أن يغيرّ البلاد والعباد..؟ نحن ننظر إلى الأمور في كثير من الأحيان نظرة أحادية، أو نظرة العميان إلى الفيل الذين لمسوا الفيل وكل واحد وصفه بالجزء الذي لمسه.. نظرتنا نظرة أحادية، ذلك أنه عندما تتعقد الأمور وتسوء الأوضاع يلتفت الناس إلى التربية، وهذا جيد في حد ذاته، ولكن ألا نكون قد حملنا التربية فوق ماتحتمل؟ نحن ندرك شرط التربية، ولكن لانغلو في هذا الشرط، إذ ينبغي أن نعرف حدودها ووعودها، وتختلف النظريات في هذه الحدود، ولا أريد أن أبحث بحثاً نظرياً، لكن هناك من قائل إن التربية عاجزة عن تغيير المجتمع وإنها خاضعة له،

نظرتنا نظرة أحادية، ذلك أنه عندما تتعقد الأمور وتسوء الأوضاع يلتفت الناس إلى التربية،

وكما يكون المجتمع تكون.. بل إنها تعيد توليد النظام الاجتماعي الذي ولدها ذاته، وهذا ماقال به «بارت Barthes» وبعض علماء الاجتماع بفرنسا مثل «بودو Budaeus، وغيره» الذي ألف كتاباً عن التربية بعنوان «إعادة التوليد».

ويرى هؤلاء أن التربية لاتعدو أن تعيد توليد النظام الاجتماعي الذي أوجدها..

وطرف آخر يقول بعكس ذلك تماماً وهو أن التغيير والتطوير إما أن يأتي على يد التربية وإما أن لايكون.. التربية عندهم. وحدها هي التي تستطيع أن تغير، بل إن بعض المغالين في هذه النظرة وأصحاب التربية المؤسسية أمثال «روجيرز Rogers» وأتباعه خاصة..

يرون إن التربية هي القضية وحدها. إن لم ننتظر التغيير من التربية فإن علينا أن لاننتظره من أي مجال آخر..

وهنالك رأي توفيقي بين الرأيين.. يقول بتأثر التربية بالمجتمع وبتأثيرها فيه، ولعل الموقف الصحيح هو الموقف الثالث بعد إجراء بعض التعديلات عليه.. التربية تؤثر وتتأثر.. هنالك صلة دائرية وليست صلة خطية بين التربية وبين المجتمع.. هنالك أخذ وعطاء.. فدور التربية قائم دون شك ويختلف قوة وضعفاً باختلاف الأحوال والظروف والعصور.

ينبغي إذن أن تكون هناك فلسفة تربوية واضحة، تبينّ لنا أي إنسان نعد وأي إنسان نخرج، ومن أجل ماذا.

فمن حقنا إذن أن نتحدث عن وعودها.. فالتربية التي تعدنا بما تعدنا به والقادرة على تغيير المجتمع بالتفاعل معه ليست أي نوع من التربية، وهذا جوهر الأمر وبيت القصيد.. ليست أية تربية أداة للتنمية، وليست أية تربية أداة للتطوير والنهضة، بل قد تكون التربية ضد التنمية وضد التقدم وضد التطوير، أي أن تكون محبطة. وهذه أيضاً حقيقة أخرى ينبغي أن تقرب إلى أذهاننا، نحن بتعبير آخر لانستخرج من الأشياء إلا مانضعه فيها.. وإذا تركت التربية وشأنها فإنها لاتأتي بالمن والسلوى، علينا نحن أن نقودها وأن نضع فيها أهدافنا لكي تؤتي أكلها وثمراتها، فالتربية التي تؤدي للتنمية، والتي هي توظيف لرؤوس الأموال، كما شاع وذاع ينبغي أن نضع فيها سلفاً أهداف التنمية الشاملة بأشكالها المختلفة، وأن نعد عن طريقها اليد العاملة والقوى العاملة اللازمة للنمو والتطور، وأن نعد كذلك عن طريقها العلماء الجدد الذين يحتاج إليهم المجتمع والتخصصات الجديدة التي تحتاج إليهم الحياة الجديدة والمستقبل.

والتربية عادة محافظة، ويدعي بعضهم أنها محافظة أكثر من الزراعة، فالزراعة استطاعت أن تتطور، ولكن التربية لاتتطور بسرعة، وأصحابها هم دعاة جمودها لأنهم ألفوا طرازاً من الأسلوب في العمل، والإنسان عدو ماجهل، وركوب مركب الوضع القائم دائماً – ولو كان خاطئاً – أيسر متناولاً وأهدأ بالاً من ركوب مركب جديد.

ينبغي إذن أن تكون هناك فلسفة تربوية واضحة، تبينّ لنا أي إنسان نعد وأي إنسان نخرج، ومن أجل ماذا..؟ ولابد أن يكون وراء هذه الفلسفة التربوية فلسفة اجتماعية تحمل نظرة المجتمع إلى الإنسان ووظيفته ومصيره..

أي إنسان نعد..؟ هذا هو السؤال الكبير. إذا لم تكن التربية قادرة على الإجابة عن هذا السؤال فمعنى ذلك أنها لاتدري ماذا تفعل.. علماً أنها تنفق في سبيل ذلك الأموال الطائلة دون جدوى كما هو الحال في كثير من بلادنا..!

■ **المنظمات العربية والإسلامية والدولية العاملة والمهتمة بشؤون التربية مثل «اليونسكو، والأليكسو، والإيسيسكو» وغيرها تتقدم بحصادها من أجل تطوير التربية، ومن خلال عملكم فيها، ومن خلال المؤتمرات والندوات والتوصيات..إلخ، ثمة أمر هام وحيوي يطرح نفسه.. إذ مامدى استجابة مكاتب التربية العربية (فنيين ومسؤولين) لما يقدم لها من توصيات ومقترحات من هذه المنظمات لتطوير عمل هذه المكاتب وأساليبها في التربية..؟**

■ أنا لاأقول إن مايصدر عن المنظمة العربية «أليكسو» أو المنظمات الدولية أو المنظمة الإسلامية، من مؤتمرات وحلقات وتوصيات..إلخ يذهب أدراج الريح.. لاشك أن الوعي التربوي، وإدراك مشكلات التربية، وإدراك معاني التجديد التربوي، كلها أمور حدث فيها تطور في وطننا العربي، ولاشك أن كثيراً من وزارات التربية وفيها بعض القادة التربويين ممن تأثروا بحصاد هذه المنظمات المختلفة ويعرفون الكثير عما يمكن عمله، غير أنه لاينفّذ من حصاد هذه المنظمات إلا القليل، وما يصل هو مالابد أن يصل عفو الخاطر غالباً، وقلما يتم ذلك عن طريق متابعة دقيقة، والأدعى لدى القادة التربويين في البلاد العربية ولدى الفنيين هو الاعتماد على المتخصصين الذين يتخرجون من جامعاتنا وجامعات العالم، ولكن المشكلة التي تظل قائمة هي لغة الحوار بين هؤلاء القادة التربويين والفنيين التربويين وبين أصحاب القرار السياسي في مجال التربية.

وما يصل هو مالابد أن يصل عفو الخاطر غالباً، وقلما يتم ذلك عن طريق متابعة دقيقة،

هنا نجد في معظم الأحيان فراقاً إن لم يكن طلاقاً، لايسأل عنه أصحاب القرار السياسي وحدهم، كما لايسأل عنه الفنيون وحدهم. وكلهم مسؤول، فإيجاد لغة للحوار مسألة هامة جداً بين الفنيين والسياسيين كي لايلقي الفنيون التبعة على السياسيين في تقصيرهم، حتى لانلجأ كعادتنا إلى تحميل المسؤولية سوانا.. على أساس أنه ليس لنا من الأمر شيء. وسبيل ذلك –

فإيجاد لغة للحوار مسألة هامة جداً بين الفنيين والسياسيين

عدا الحوار – أن يلجأ الفنيون إلى وضع خطط وأفكار واضحة وبسيطة تقدم لأصحاب القرار السياسي، وأن تكون هناك مجالس عليا تمثل فيها فعاليات مختلفة من المجتمع تضع السياسة التربوية معتمدة على فلسفة تربوية واجتماعية تنظم هذا كله، وحتى يتم ذلك نجد أن هنالك عوائق كثيرة تقف في طريق مسيرة التربية العربية، مثل التعليم الابتدائي أو الإلزامي، إذ لم يتم تعميمهما في جملة الوطن العربي حتى الآن، وحسب التنبؤات والإسقاطات فإن ذلك لن يتم بجملة الوطن العربي إلى عام ٢٠٢٥. نرى ذلك كله في واقعنا العربي بينما استطاع بلد كاليابان أن يعمم التعليم في نهاية القرن التاسع عشر، وأعتقد أن هذه وصمة عار في جبين الأمة العربية.. أما التعليم الثانوي فرغم أنه يتقدم ويتطور لكن أداءه النوعي ليس في المستوى المطلوب دائماً. كما أنه لم يأخذ اتجاه التنوع والتخصص. أما التعليم الجامعي فإنه يتقدم بسرعة كبيرة، ولكنه وحيد الاتجاه أيضاً وبناه القديمة لاتزال جامدة، ولم يساير ماجرى من تطور، هذا مع العلم أن الإنفاق على التعليم كبير جداً تنوء بحمله الدول القادرة فضلاً عن الدول الفقيرة، لاسيما أننا شعب يتصف بفتوة السكان، وبالتالي فعدد السكان فيه كبير جداً ٥٧٪ تحت سن العشرين، وهذا كله يجعل التعليم غير قادر على تحقيق الهدف المنشود.

هل بإمكاننا أن نلحق بالركب العلمي والتقني، والركب سائر مغذ في سيره بخطى تكاد تخطف الأبصار؟

■ **الثقافة سمة العصر، ومع أنها تحمل إلينا مايفيدنا إلا أنها تقلقنا وتخيفنا، وهذا مردّه إلى أننا لم نهيّء مهاداً علمية متنوعة وهياكل تقنية تواكب العصر، وتضع قدمها فيه، والسؤال المقلق هو كيف نواكب الركب العلمي والتقني؟ وكيف نواجهه؟ وهل مازال في إمكاننا اللحاق به..؟**

■ لا بد لأي بلد – إن كان يريد اللحاق بركب الحضارة – أن يدخل ثورة العلم والثقافة، وتجربة الدول قديمها وحديثها يكاد يشهد أن البلدان التي استطاعت أن تتقدم سريعاً مواكبة الحضارة كاليابان مثلاً – وهي دوماً مثال صارخ – إنما تمّ لها ذلك بفعل عاملين مجتمعين: الأول هو توفير القاعدة العلمية التكنولوجية اللازمة، والعامل الثاني هو تحريك إرادة هذا العمل المشترك، ولكي أربط بين ماقلت وهذا الموضوع أقول: إن قطبي التقدم هما قطب قومي، وقطب تقني

علمي، والبلاد العربية لن تتقدم بدونهما، ومادمنا نتحدث عن القطب العلمي والتقاني، فقد أصبح الموضوع دقيقاً ومعقداً، تكثر حوله التساؤلات. هل بإمكاننا أن نلحق بالركب العلمي والتقني، والركب سائر مغذ في سيره بخطى تكاد تخطف الأبصار؟

لقد شهد العصر الحديث ثورات متتالية، كانت الثورة الصناعية الأولى، ثم الثورة العلمية التقنية، وتلتها (ثورة الأتلتة) باستخدام الآلة ثم جاءت الثورة «الروبوتية» اليوم. ولنبسط الأمور، فبعد الثورة الصناعية الأولى بدأت الآلة تأخذ مكانها الواسع، وتكاد تتجاوز في عرف بعض أصحابها عصر الصناعة، وسميت ثورة مابعد الصناعة لأنها تحبب الإنسان بالصناعة ولتصبح الآلة هي البديل، وفي رأي بعض المحللين ومنهم الفرنسي «غبرلييه» صاحب الكتاب الشهير «الفرصة الوحيدة» أن الفرصة الوحيدة المتاحة لبلدان العالم الثالث من أجل دخول الثورة العلمية التكنولوجية هي في الانتقال تواً من وضعها الحالي (مرحلة ماقبل الصناعة إلى الثورة العلمية التقنية المتقدمة) دونما تريث أو توقف عند الثورة الصناعية الأولى، وبرأيه أنه ليس من الضروري أن تمر البلدان النامية بجميع المراحل التي مرت بها البلدان المتقدمة، وأنها تستطيع أن تقفز رأساً إلى أحدث أشكال التقدم، وهذا قول كما يقول المعري له خبيء فهل يمكن فعلاً قيام ثورة علمية تقنية متقدمة دون أن نكون قد عرفنا تطورات المرحلة الأولى؟..

أعتقد أن الجواب لا.. ولكن الذي يمكن أن نقوله هنا إنه ليس من الضروري أن نمر بالثورة الصناعية الأولى بتفاصيلها، إذ يمكن أن يقوم نظام هجين إلى حد ما، يمزج بين الثورة الصناعية الأولى وبين بوادر الثورة التقنية، والهدف هو طبعاً السير نحو الثورة العلمية التقنية مباشرة.. فماهي الشروط لذلك..؟

أنشئت في بلادنا الجامعات منذ أوائل هذا القرن، وقد تخرّجت فيها أعداد هائلة من المتعلمين والمثقفين والمهندسين والعلماء إلخ.. ورغم ذلك لم نستطع حتى الآن أن نكوّن بنية علمية تقنية جديرة بالنظر، ويضيف المتحدثون عن التقدم العلمي والتقني إلى ذلك شروطاً أساسية ينبغي أن تتوافر لها:

أولها : وجود موارد طبيعية للتقنية

لم نستطع حتى الآن أن نكوّن بنية علمية تقنية جديرة بالنظر.

يجب أن لايرعبنا هذا التقدم الكبير الذي نجده في الغرب على أهميته وشأنه.

الصناعية، وهذا متوافر في كثير من البلاد العربية. وثانيها: وجود الأموال اللازمة للقيام بالبحث العلمي. ويبقى شرطان أساسيان، الأول: وجود العلماء والباحثين الذين في وسعهم أن يقدّموا النتائج العلمية لتنقل بعد ذلك إلى التقنيات والصناعات.

والثاني – ولعله أهم المطالب – **وجود الرغبة الصادقة لدى فئة أو جماعة أو سلطة عازمة على التقدم العلمي، وقادرة على دفع الأمور في اتجاهها السليم.** وبتوفر هذين الشرطين الأخيرين أعتقد أنه يمكن للأمور أن تأخذ شكلاً آخر. فيما عدا ذلك فسنظل مستهلكين، وستظل التقنية دوماً بعيدة المنال، وأرى أنه يجب أن لايرعبنا هذا التقدم الكبير الذي نجده في الغرب على أهميته وشأنه. فهو في الواقع مجموعة من المسافات يكاد ينظمها خيط رائد واحد، وماعلينا إلا أن نكتشف هذا الخيط. فإن العمل المبدع الخلاّق يولّد كل شيء.. ويحضرني في هذا المجال تشبيه أتى به الفيلسوف «بركسون Bergson» عندما تحدث عن التطور المبدع في كتابه «التطور المبدع» إذ يقول: تصوّر كومة كبيرة من برادة الحديد، وتصوّروا أنكم تريدون أن تصفّوها على شكل معين بحيث تتمثل شيئاً ما.. فإذا فعلتم ذلك صفاً وذرّة بعد ذرّة فقد تنقضي الأيام والسنون دون أن تفلحوا في ذلك.. ولكن إذا تخيّلتم يداً تعبث بها من الداخل لتحركها بحيث تكوّنها على الشاكلة المطلوبة أدركتم أن الأمر أهون من ذلك. إذن ينبغي ألاّ يخيفنا التقدم، وكما يقول حافظ إبراهيم:

أقدم فليس على الإقدام ممتنع
واصنع به المجد فهو البارع الصنع
للناس في كل يوم من عجائبه
مالم يكن لامرىء في خاطر يقع
فالإبداع والتصميم والإقدام تأتي بالكثير..

ونعود للثقافة ونعود للثقافة.

وبعد فلن يتأتى لنا في هذه المساحة الإحاطة سوى باليسير من فكر الدكتور عبدالله عبدالدايم وفلسفته وحياته، وأية محاولة لادعاء الإحاطة تعني إجحافاً له، فلا يمكن أن يوجز عطاء نصف قرن من الزمن بقدر ماينبغي أن يدرس ويبحث، فهو الكاتب الجاد والمربي والعالم والمنظّر، إضافة إلى ماشغله من مراكز مهمة عربية ودولية كرّس فيها جهده ووقته لخدمة وطنه وأمته، بل لخدمة البشرية والإنسانية جمعاء.. ■

الوجه الآخر
للموشحات «٢ - ٣»

من خلال الكشف الجديد لكتاب:
«عدة الجليس»

إخراج وشرح : د. أحمد بسام ساعي

الأستاذ الزائر بكلية الدراسات الشرقية في جامعة أوكسفورد.

٢ - البعد الجديد للصورة الفنية:

هاجر زرياب البغدادي إلى الأندلس ليضع هناك الوتر الخامس للعود، وليمنح الموسيقى العربية بعداً جديداً وعمقاً أخاذاً ماكانت لتصل إليهما بأوتارها الأربعة الأولى لولا إضافته الهامة.

وما كان لزرياب «البغدادي» أن يبدع وتره الجديد إلاّ في ظل البيئة الأندلسية الجديدة، وما كان للعبقرية الشعرية العربية أن تبدع الموشحات، الوتر الخامس في قيثارة الشعر العربي، إلا تحت التأثيرات الحضارية الجديدة التي أوجدتها بيئة الأندلس.

والصورة، هذا العمود الفني الذي يضعه النقاد جنباً إلى جنب مع العروض أو الأوزان لتمييز الشعر من النثر، تمثل أحد الأركان الفنية الأساسية التي ينشدّ إليها ويحقق تناغمه وتوازنه بها هذا الوتر الجديد في حضارة الأندلس.

لقد ركز الباحثون على العنصر التقليدي في الصورة الأندلسية، وأصرّوا على أنها نسخة

أخرى من الصورة الأم في الشعر العربي بالمشرق، وكذلك كان شأنهم مع معظم العناصر الشعرية الأخرى الأساسية والفرعية، خرجوا بهذه الأحكام اعتماداً على إبداعات الأوتار الأربعة القديمة للشعر الأندلسي، أقصد الشعر الخليلي منه، ولم يحاولوا - وهم يصدرون أحكامهم - النظر إلى هذا الوتر الخامس الجديد: الموشحات، ولو فعلوا لخرجوا بحكم مختلف، ولاقتربوا أكثر من الحقيقة العلمية التي ماكانت لتبين لهم دون أن يكون بين أيديهم شروح كافية للموشحات تظهر معانيها، وتبرز صورها، وهذا مالم يقدم عليه للأسف باحث عربي أو غربي حتى الآن.

وكانت المصادفة التي أتاحت لي المشاركة في تحقيق كتاب (عدة الجليس) لابن بشري - وهو الذي سيتضاعف بظهوره عدد الموشحات الأندلسية المعروفة حتى الآن - فرصة ذهبية لأصرّ على خروج الكتاب مشروحاً شرحاً وافياً، ولأكتشف، من ثمّ، الحقائق الفنية الجديدة للنسيج الشعري للموشحات.

وعلى ضوء هذه النصوص الجديدة التي سيسمعها العالم لأول مرة، نحاول ملاحقة خط الصورة في الموشحات الأندلسية، بين التقليد المرتبط بالمشارقة، والتجديد المحلّق في سماء جديدة، والكاشف لبرّ جديد وآفاق جديدة للخيال الشعري العربي.

كانت محاولات الوشاحين في الصورة مستمرة للتخلص من النسيج العنكبوتي للمشارقة وهو يحيط بكل مظاهرهم الثقافية وتقاليدهم الشعرية، فحبوا حيناً، وقفزوا حيناً، وحلّقوا في سماء التجديد والإبداع أحياناً أخرى.

وحين حبوا كانت إبداعاتهم لاتزيد على مغازلة أو مراودة للصورة الشعرية المشرقية عن نفسها، حتى يهتصروها ويخرجوا منها بصورة فيها روائح الجدّة وليس فيها طعمها. فالدموع عند المشارقة كانت تنبىء دائما عما في القلب من مرارة الحب ولوعته، ولكن خطوط الدموع تتحول عند الوشّاح إلى سطور تقرأ فيعرف قارئها حقيقة مافي الضمير، كما في الموشحة الحادية عشرة:

في صفحتيه سطور من أدمعٍ تُنْبي
عماَ طواه الضميرْ من لوعة الحب

أو قد تتحول العينان إلى كاتب ماهر يخط سطور الحب في صدور العشاق البائسين، كما في الموشحة الرابعة عشرة:

قد كتبتْ عيناهْ في صدر من يهواه سطراً من الحُب

إنها لصور جديدة وجميلة حقاً، ولكنها الصور التي تتكىء بوضوح على عناصر خيالية أولية مبثوثة في ديوان الشعر العربي المشرقي. وإذا لم تكن العناصر هي المتكأ فروح الصورة

المشرقية مبثوثة في مثل هذه الصور، رغم تغيّر أطراف الصورة والعلاقات التشبيهية القائمة بينها، وإذا قلب الحب المحبّ في الصورة المشرقية إلى شبه خيال أو جسد ناحل «لو توكأت عليه لانهدم» -كما يدّعي بشار- فالنحول يأخذ عند الوشّاح صورة مختلفة ذات بعد جديد، رغم سيطرة الروح المشرقية عليها. فهو في الموشحة الخامسة والعشرين المجهولة القائل ليس مجرد عصا أو خيال، بل هو تحت المجهر الجديد للشاعر، جسم صغير خفيف يرى فقاقيع الماء بحراً لجياً يكاد يغرق فيه، ولكن لم الخوف؟ إنه في خفة الريشة وإذن لن يغرق في هذا البحر أبداً:

أقصـــري عـن لـــوم صبٍّ دَنِفٍ نـــاحـل
لـــو مشى فـــوق حَبـــابٍ صـــار في لجُّهْ
لم يُـــر يَغـــرقُ في الماءِ مـن الخفّـــه

وقد يكون التحايل على الصورة المشرقية القديمة أكثر ذكاء وأدق معالجة حتى نحس بالروح الجديدة تزين المعنى التقليدي أو الصورة القديمة، فجفوة المحبوب عند أبي بكر ابن الصابوني في الموشحة التاسعة عشرة تتبعها جفوة الكرى أيضاً، وكأنهما اتفقا على توحيد خطواتهما لإيذائه:

مـــاحـالُ صب ذي ضنىً واكتئـــاب أنْحَلَـــهُ يـــاويلتـــاهُ الطبيبْ
عـــامَلَـــهُ محبُـوبُـــه بـــاجتنـــاب ثم اقتـدَى فيـه الكَـرى بـــالحبيبْ

أو أن يكون التحايل بوضع معادل مضاد للصورة يوازيها ويخالفها في الوقت نفسه، فالحبيب -على مذهب الشعراء- كالبدر في الحسن، ولكن الوشاح يضيف إليهم متأسفاً، أنه كالبدر في البعد أيضاً:

مَنْ لي بـــه كـــالبـدرِ في حسنـــه لـــو لم يكنْ كـــالبـــدرِ في بُعـــدِهِ

أو أن يستبدل بعلاقة التشبيه التقليدية بين طرفي الصورة علاقة من نوع آخر، ليست بالتشبيه ولابالمجاز بنوعيه المرسل والعقلي. فقدّ الحبيب الآن ليس كالغصن - على مذهب الشعراء - بل تحلّ محل علاقة التشبيه علاقة عتاب وغيرة وتلاوم، وربما تفاصل وتقاطع،

بين الروض -إذ رأى جمال قدّ الحبيب- والغصن الذي فيه، وقد ظهر إلى جانبه من ينافسه في الرشاقة والاعتدال:

لم يَعتِبِ الـــروضُ على غصنــــهِ حتّى رأى مـــااهتـــزّ مـن قَـــدّهِ

ولكن أبا بكر التطيلي، في الموشحة الواحدة والعشرين، يتجاوز مرحلة التحايل الفني إلى مرحلة الإبداع والتفنن الحقيقي للصورة. إنّ أسنان الحبيب الآن ليست كشيب المحب بياضاً فحسب، فالصورة هنا تضيف إلى علاقة التشبيه من غير أن تستغني عنها ومن غير أن تعتمد بشكل أساسي عليها، علاقة صيرورة أو سببية، فأسنان الحبيب الناصعة قد نهشت المحب وفتكت به، وهاهي آثار بياضها واضحة على رأسه:

كيـف لايبكـي على ريقـــــــــهِ
مَنْ صبـــاهُ في يَـــدَيْ مخْلَقـــهِ
وجـــدُوا نـــابَكَ في مَفـــرِقـــهِ

وضحى شـــاعَ فعمّ المَفْـــرِقـــا قبـل أن يَفـــرُغَ مـن مَطْلَبـــــهِ

ثم يعمد إلى أطراف من الحسيّات فيضعها بإزاء المعنويات -خلافاً لقواعد البلاغيين- ويقيم بينها سلسلة من علاقات التشبيه مثل: رقة الحبيب كنعومة وجنتيه، وقسوة قلبه على محبّه كقسوة الدرع التي يتمناها هذا الأخير ليتقي ضربات ألحاظه، ونفس المحب في القوة واللين معاً كالرمح لا تهاب القتال ولكنها ليّنة سريعة الانثناء والانعطاف، كضعفه أمام انثناء الخصور ولينها، وهكذا تجده يخشى مواجهة الظباء ثم لايبالي بلقاء الأسود:

جُـمِعَتْ رقّتُـــهُ في وجنتيْـــهْ
لـو كَسَـوني لأمَةً من قَسـوتَيْـهْ
لم أُنَلْ بعـــد بسهمـي مُقلتَيْـــهْ

فــانـجُ عنهـا، لحظُـــهُ لايُتّقَى بسِـــوَى ذاك الـــذي في قلبِـــهِ

خلِّ نفسيْ فيـــه تلتـــذُّ العَنــــا

فهي كــالصَعَــدَة بـأســاً وانثنــا

تحذَرُ العَطْـف ولاتخشَى القَنــــا

سَنَـحَ الظبيُ فماتـتْ فـــرَقــــا وعَـــدَا الليثُ فلم تحَفِـلْ بـــه

وعلى الطريقة نفسها تنقلب أحزان المحب في الموشحة الثالثة -المجهولة الوشّاح- إلى زجاج صقيل يبني به المحبوب صرح أفراحه الممرد كصرح سليمان لبلقيس:

يـــايُــــوسُفَ الحُسْنِ والإحســـانِ

إنْ كنـتَ مـــرّدْتَ مـن هجـــراني

صرحـــاً قـــواريـــرُهُ أحـــزاني

فقـــد خَـــدعتَ بـــه أقْـــراني

وإن تكنْ ساهياً عن نَبَئِي فسرِ حالي قد أتاكَ من سبإِ

ولكن خيال الـوشّاح قـد يحلّق بعيداً جداً في فضاء الصورة الشعرية، فتتعـدد الأطراف وتتشابك العلاقات وتتباعد الأجزاء، وتختلف النوعيات التي تنتمي إليها هذه الأجزاء لترتقي بالصورة إلى مستوى لم تعرفه إلا في هذا القرن العشرين بعد ازدهار المدرسة الرمزية وتعقد العلاقات الخيالية بين أجزاء الصورة الشعرية.

هذه صـورة الشاعـر اللبناني سعيـد عقل، التي تمثل الـذروة بين هذا النوع مـن الصـور الشعرية الحديثة، والتي يتذكر الشاعر فيهـا فتاته، فتعبق رائحة الشذا من ذاكرته، فيتساءل هل كانت الورود تتذكرها في الوقت نفسه:

كنتِ ببـــالي فـــاشتممتُ الشَـــذا فيـــهِ، تُـــرى كنتِ ببـالِ الـــورودْ؟

إنها صورة تتعدّد أطـرافها، وتتباعد الخطـا بين هذه الأطراف حين يقيم الشـاعر خيطاً ذا خمس حلقات، يمتد من أنفه إلى ذاكرته إلى فتاته إلى ذاكرة الورود ثم إلى الورود نفسـها.

هذه الفتـوحات الخيالية الـرائعة عند الشعـراء المحدثين لم تكن بعيدة جداً عن الفتـوحات الخيالية التي حققها الوشاح الأندلسي في بعض ماشداه:

في ارتشـافِ رِيقِ الأبـارق　　وتـرنُّمِ الوتـرِ النـاطقْ　　لنـــا مَـــذْهَـبْ

غنّتِ القيـــانُ بـإفصـــاحِ
فـــاسقِني كـــؤوســـاً من الـــراحِ
كـــالبروقِ لكنْ يـــاصـــاحِ

أمطرتْ وقـد أخلفَ البارِق　　فسرُرتُ لو كـان ذا صادقْ　　وذا خُلّـــــــبْ

هذا هـو مطلع الموشحة العشرين لأبي بكر بن مـالك اللاردي، والصورة فيهـا تنعقد بين ستة أطراف: الكؤوس والبرق والخمرة والمطر والبارق (أو الثغر) وريق المحبوب.

فالكؤوس التي تقـدم له تشعّ كالبرق ضياء، ولكن الأولى أمطـرت عليه خمرة، أما البرق، وقد تحوّل الآن بجيلة لفظيـة إلى (بارق) وهي لفظة تنطبق على كلا البرق والثغـر معاً، فقد أخلف العطاء، ولم يجُد على محبّه برشفات من ريقه العذب، فليت الكأس قد كذبه والثغر قد صدقه.

هذه الصورة السداسيـة الأطراف، المتباعدة الحلقات، المتحايلـة بالبيان والبديع والتشقيق اللفظي والمعنوي، والمتجاوزة بتعقيدها الفني لأكثر التعقيدات الفنية للصورة الحديثة ليست بِدعـاً عند الوشاح الأنـدلسي. وإنها لصور قليلة قبسناهـا من الموشحات الخمس والعشرين الأولى من عدة الجليس، فهي جـزء من أربعة عشر جـزءاً من الكتاب البالغ ثـلاثمائة وأربعاً وخمسين مـوشحة. ولاشك أن الغـوص في بحره الخضـــمّ سيتيح للـدارس فرصـة أكبر، ويقدّم له شواهـد أصدق، ولآلىء أثمن من تلك التي تلقطها على عجالة من شـواطئه القريبة الدانية. ■

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله

يقول العبد الفقير الى رحمة مولاه الراجي عفوه ومغفرته ورضاه علي بن بشرى الاغرناطي

الحمد لله على ما أسدى من النعم، وبسط على عباده من أنواع الفضل والكرم
وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد سيد العرب والعجم، وخير من أوتي
فصل الخطاب وجوامع الكلم، وأعذب من نطق [illegible]
[illegible]
الطاهرين المهتدين، وشرف وكرم، ومجد وعظم، وزكى وسلم. وبعد
فإنه لم تزل تشوقني همتي وتستنهضني طول المدى عزيمتي إلى تصنيف تأليف
يشتمل على ما استعذبته المسامع، وأرقت الأجفان وأسال المدامع،
من مختار ما سمعته سمحت به قرائح أرباب الأدب، ومن [illegible] الإبداع
[illegible] من التوشيحات التي تصبو لها الألباب، وتفتح على
[illegible] كل باب، وتستلب من [illegible] كل هم [illegible]، وتصقل [illegible]
كل صدى استحكم [illegible] من [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

صورة الصفحة الأولى من الكتاب المخطوط «عدة الجليس ومؤانسة الوزير والأنيس» لابن بشرى.

٣ - الوتر العروضي في الموشحات

شهد الشعر العـربي على مدى القرون الطويلـة التي سبقت الإسلام خطوات تطـويرية في هيكله الإيقـاعي، كان لابد أن تسبق الأوزان الـراقية المتكـاملة التي أقام عليهـا امرؤ القيس وسـدنة الشعـر من بعده قصـائدهم، ثم استنبطها الخليل بن أحمد بعـد أن استقرأ الشعـر العربي كلّه أو معظمه.

ولنا أن نتخيّل الأوزان في مرحلتها الأولى مجرد إيقاعات راتبـة بسيطة، استوحاها العربي البسيط من أصوات الطبيعة من حوله، فخرج بما دعي بعد ذلك بالبحور الصافية، وهي التي تقوم على نوع واحد من التفعيلات، كالخبب والمتقارب والرجز والرمل.

وإذ تمكّن العربي من إقامـة هذه الإيقاعات استطاع أن يخطو بها إلى مـرحلة أكثر تعقيداً، فتوصّل إلى البحـر الطويل بعد أن أضـاف ضربة واحدة – أي سبباً خفيفـاً (/ْ) – بعد كلّ تفعيلتين من تفعيلات المتقارب الأربع فكان الناتج:

فعولن / فعولن فع (أو مفاعيلن) / فعولن/ فعولن فع (أو مفاعيلن)

ثم حـاول ذلك مع الرجـز، فأسقط الضربـة الأولى من التفعيلة الأخيرة فيـه – أي السبب الخفيف – وكانت (تفعلن) بدلاً من (مستفعلن)، وهكذا توصل إلى البحر السريع:

مستفعلن / مستفعلن / تفعلن (أو فاعلن)

وفي محاولة معـاكسة أدخل الضربة نفسهـا على آخر التفعيلة الأولى فغـدت (مستفعلاتن) وأصبح الوزن هكذا:

مستفعلا/تن مستفعـ/لن فاعلن

وهو المنسرح.

ولاشك أن مثل هذه التطورات العـروضية رافقت دائماً تطورات حضارية من نـوع ماكان يعيشها العربي، وكانت تتيح له أن يتوصل إلى مثل هذه الارتقاءات الموسيقية أو العروضية، وإن كنّـا لانستطيع الآن تحديـد تلك الخطـوات الحضـاريـة التي شهـدتها أرض الجزيـرة، وشهدت معها كل مـن هذه الخطوات التطور الإيقاعي الموازي لها، ويكفـي أننا تلمّسنا بهذا التخيّل التاريخي السريع الـدرجات الإيقاعية التـي ارتقاها العربي على مـرّ القرون ليصل إلى البحور الستة عشر التي بين أيدينا.

ولذا كان لابدّ أن ننتظر خطوات عروضية ارتقـائية أخرى مع كل خطوة حضارية، وهكذا حقّق بعض شعراء الـدولة العباسية، كأبي العتـاهية وبشار وأبي نوّاس ومسلم بن الـوليد، بعض التطور الإيقاعي في الأوزان العربية، ولكن من سوء حظ العروض العربي أن حملة هذا

التطور العروضي، أو معظمهم، كانوا مهتمين بالشعوبية، وهذا أدى إلى إحباط محاولاتهم التطويرية على أيدي العرب أنفسهم الذين كانوا يخشون على عروبتهم من أن يفسد أسسها هؤلاء الذين عدّوهم متطفلين على الفن العربي والفكر والثقافة والحضارة العربية.

ثم تأتي الفرصة الذهبية الكبيرة للشعر العربي، بعيداً عن عقدة الشعوبية وبعيداً عن الأرض التي شهدت ذروة الصراع العربي – الشعوبي، وكانت الأندلس هي الأرض البديلة، حيث التربة المختلفة والهواء الجديد الذي تنسّمه العرب، فولّد في نفوسهم جدلية عميقة مثمرة، بين سلفيّتهم المتأصلة، وأندلسيّتهم المصبوغة بطابع الحياة الجديدة، بين فنّهم العربي المشرقي، والفن الأوروبي الطارىء على حياتهم وعلى أسسهم الجمالية والفنية الموروثة. وهكذا استطاعوا أن يحققوا خطوة عروضية جديدة بارزة على خط التطور العروضي العربي، خطوة سلمت من عقدة الشعوبية، فانفتحت أمامها الآفاق عريضة متسعة لتأخذ حجمها الكامل وتبدع لنا فناً جديداً عرف بفن الموشح.

لقد ارتبط الشعر العربي دائماً بالموسيقى، فهو مرتبط بالنشيد أو الإنشاد غالباً، وبالغناء أحياناً قليلة. والغناء فن أرقى موسيقية من الإنشاد، وأكثر تنوعاً وتعقيداً، ولهذا كان موسيقيّو العرب ومطربوهم يبحثون في صفحات الشعر العربي عن أكثر القصائد تفوّقاً من الناحية الموسيقية، لتنطلق ألسنتهم بها غناءً، وأوتارهم تلحيناً، فارتباط الشعر بالغناء واضح إذن، وواضح أنه يتطور إلى غناء بقدر ماتزداد عناصره الموسيقية غنى وتنوعاً وعمقاً.

ورغم خروج الوشاح الأندلسي عن أوزان العرب التقليدية، محققاً من التطورات العروضية مالم تحققه هذه الأوزان عبر مئات السنين، ورغم مخالفته الأذن الموسيقية العربية التي اعتادت الاستماع إلى تلك الأوزان، والاستمتاع بها لا بغيرها، نجح الوشّاح من خلال أوزانه الجديدة أن يحتفظ برصيده لدى الأذن العربية، فلم يخسرها، بل تمكن من تطويرها وإقناعها بإيقاعاته الجديدة، وإن كانت هذه الإيقاعات معتمدة في الحقيقة، وبشكل أساسي، على تفعيلات الخليل، كما سنرى في نماذجنا المنتزعة بأكملها من كتاب عدة الجليس لابن بشري الذي تذاع موشحاته، الثلاثمائة والأربع والخمسون، على العالم لأول مرة.

وهكذا ينطلق الوشاح الأندلسي في سماء التجديد الموسيقي والعروضي، ولكنه لايعلنها ثورة على جذور العروض العربي، وإنما يتمسّك بتفعيلات هذا العروض ويستند إليها في تجديده.

يقول ابن بقي في مطلع الموشحة السابعة من عدة الجليس:

طـــالَ لـــــيلُ الكئـــــيب   مـــنَ الأســـى والنّحيـــبِ
فـــي غــــزالٍ ربيــــب   يجَـــني ثـــمارَ القلـــوبِ

فالشطر الثاني في كل بيت من بيتي المطلع من بحر المجتث (مستفعلن فاعلاتن). ولو أضفنا صوتاً واحداً (أي سبباً خفيفاً) إلى مطلع الشطر الأول لكان هو أيضاً من المجتث. وليس في أوزان الخليل مايتسع لصياغة هذا الشطر، ولكنه يبقى ضمن حدود تفعيلات تلك الأوزان، ولنا أن نقرأه هكذا:

فاعلاتن فاعلاتن

أو هكذا : فاعلاتن فعولن

وكلها تفعيلات خليلية، وإن اختلفت مواقعها وأعدادها عند الوشاح اختلافاً يجعل منها وزناً جديداً أو صياغة عروضية جديدة قائمة على تفعيلات أو سبائك عروضية قديمة.

وكثيراً مايلجأ الوشاح إلى أكثر الأوزان العربية تقليدية فيتمسك بها وبتفعيلاتها، بل بترتيب هذه التفعيلات أيضاً، ولكنه يركز على إحداها، فيقلّبها في أشكال عديدة متلوّنة من غير أن تخسر موسيقيتها وجاذبيتها للأذن العربية، مهما بدت غريبة في البداية، وهذا مانلمسه في الموشحة الخامسة عشرة لأبي بكر التطيلي:

ضنى جسدي بادي لم أشك لعوّادي سوى الحب

مَنْ لي بِرَشاً أغيدْ
يُعذّبُني بالصدْ
وبالهجرِ قد أوعَدْ
فما حالُ مستعبدْ

غدا بين إبعادِ ومابين إيعاد من الحُب

وكم ليلةٍ بِتْنا
وسْطَ الروضةِ الحسنا
والطيرُ بها غنّى
بصوتٍ له مَعْنى

على شاطىء الوادي وفي كلِّ ميّادِ من القُضْبِ

إنه يقلّب (فعولـن) في الأدوار بين (فعولُ) و(مفعولُ) و(مفعولن) وهو تنـويع غريب لهذه التفعيلة ضمن القصيدة الواحدة وفي الموقع الواحد من أجزائها.

ولكن جـرأة الوشـاح الاستكشافيـة، وتطلّعه إلى آفاق عـروضية ومـوسيقية أبعـد، تجعل محاولاته أحياناً كهبّات عاصفة تخرج عن المألـوف، حتى لاتكاد الأذن العربية تتعرّف عليها أو تمسك بها، رغم محافظتـه المستمـرة على تفعيلات الخليل وبنـائهـا الأصلي. فالتفعيـلات (مستفعلن) و(فعـولـن) و(مفـاعيلن) مأخـوذة من بحـرين على الأقل: البسيـط والطـويل، والبحران من دائرة عروضية واحدة، ـ كما هو معروف لدارسي علم العروض- وهذا مادفع الـوشـاح الأندلسي، بشكـل من الأشكال، إلى المزج بين التفعيـلات الثـلاث، كما في الموشحـة السابعة والخمسين لوشاح مجهول:

جـرِّرْ معَ الصبـابـةِ والخَمـرِ　　أذيـــالَ ذي ارتيـــاحْ
فما على المتيّـم مِـن عـــار　　في الــــــراحِ والمِلاحْ

يـاصـاحبـيّ مـالي ولـلائم　　في الخمــــــرِ والهوى
وقـد أضرّني عـذْلُـهُ الـدائم　　وليس لي ســــوَى
عصيـانِـهِ ، في مستوى الهائم　　طَـواه مــاطَــوى

ففي صـدور أجزاء الموشح خلط غـريب متعمد لتفعيـلات البحـرين (مستفعلن فعـولن مفاعيلن)، على حين اكتفى في الأعجاز بالتفعيلتين الأوليين منها (مستفعلن فعولن) وهي شكل من أشكال بحر ثالث هو الرجز.

هذه القفزات الماهرة على حبال العروض العربي، ماكان الوشاح ليتقنها ويبدع بها من غير النضج الإيقاعي المتميّز، والتطور الموسيقي الرفيع، والملكة العـروضية المتفوقة التي أحرزها في الأندلس.

هذه الـومضات الإبداعية تشـدّنا إلى الانطلاقـات العروضية الواسعـة التي حاولها بعض أعلام حركة الشعر الحديث في سورية ولبنان والعراق خاصة، مما عرضته في كتابي (حركة الشعـر الحديث)، وتلمّست فيه أنـواعاً عـروضيـة تتجاوز شعـر التفعيلة أو مـاسميته بـ (التوقيع) إلى نـوعين عروضيين أكثر تطـرّفاً وخروجـاً عن المألوف، ممـا أطلقت عليه اسمي (التشكيل) و(التنويع).

ولكلّ من النوعين نماذجه العديدة عند وشّاحنا من غير أن يفقد شرط الأصالة.

ففي (التنويع) ينـوّع الشاعر بين تفعيلات أكثـر من بحر واحد ضمن القصيدة الـواحدة،

كما في النمـوذج السابق، حيث التقت تفعيـلات البسيط والرجـز والطويل جنبـاً إلى جنب في الموشحة.

أما في (التشكيل) فيعيد الشاعر تشكيل تفعيلات البحر الواحد، فتتقدم أو تتأخر أو تتكرر، من غير التقيّد بمـواقعها الأصلية أو عددهـا في البحر الخليلي، وهذا كثير لدى وشّـاحينا، كما نرى في الموشحة السادسة عشرة من (عدة الجليس) التي نرجّح نسبتها إلى الشاعر اليهودي عبدالحليم اللاوي لأننا نرى مطلعها خرجة لموشحة عبرية من تأليفه. يقول الوشّاح:

نسيـم الـــروضِ فـــاح   فقـــومـــوا نَشربُ

ألا قـمْ يـــــاغــــلامْ

أدرْ كـــــــأسَ المُدامْ

مضـى صرْفُ الظـــــلامْ

وكـــافـــورُ الصبـــاح   إلينـــا يُـــــجلَبُ

صلـــوا مَـــزْجَ الخمـــورْ

بَسلســـال الثغـــورْ

فما سرٌّ السرورْ

ســـوى كـــاسـاتِ راح   وريـــقٍ يَعْـــذُبُ

فتفعيـلات الموشحة هي من الطـويل، ولكن الوشّـاح قلب ترتيب هـذه التفعيلات، وأعـاد تشكيلها ضمن البيت، فابتدأ بـ (مفاعيلن) وانتهى بـ (فعولن): (مفاعيلن فعول).

وأخطر من هذا وذاك أن يقسم الوشّاح التفعيلة بين شطرين متجاورين بحيث يوحي إلينا بهذا التقسيم أننا أمام وزن جديد، وماهو إلا الوزن الخليلي نفسه تلاعب علينا بتقسيمه، كما في الموشحة الخامسة والعشرين المجهولة القائل:

قـد بـدا مـاكنتُ أخفيـهِ عن العـاذلِ

في هـوى من زادَ في السحـرِ على بـابلِ

فـاقصري من لـومِ صبٍّ دَنِفٍ نـاحلِ

لـــو مشـــى   فـوق حُبـاب صـار في لجِّه

لـــم يُـــر   يَغـرقُ في الماءِ مـن الخفّـه

فالموشحة من بحر الرمل (فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن) مع زيادة (فعل) أو (فع) في آخره، ولكن الشاعر، في الأقفال دون الأدوار، قسم الجزء إلى شطرين: (فاعلا) في الأول و(تن فاعلاتن فاعلاتن فعل) في الثاني، ومن لم يدرك حقيقة هذا التقسيم ذهب إلى أن الموشحة من (السريع) أو بالأحرى من (تشكيل السريع):

فاعلن مستفعلن فاعلن

هذه الخطوات العروضية المتقدمة هي التي دفعت بالشعر العربي ـ من خلال الموشح ـ أشواطاً بعيدة باتجاه الغناء والغنائية، مما يؤكد المبدأ الذي انطلقنا منه، وهو اقتراب الشعر من فنّ الغناء كلما ارتقى موسيقياً، فيتحول من مجرّد إنشاد في الأوزان التقليدية إلى أعلى درجات الغناء في الموشحات، وهو دليل على أن الموشح من الناحيتين العروضية والموسيقية، خطوة تطويرية واسعة وأصيلة للشعر العربي حقق بها من التطورات العروضية والإيقاعية مالم يحققه بغيرها من الأشكال الشعرية على مدى مئات السنين، وهي خطوة أصيلة تخالف مايجري اليوم على ساحة الشعر العربي الحديث من ممارسات منبتّة الجذور لاتقوم على أساس عروضي أو موسيقي عربي ثابت وأصيل. ■ ■

(انتهى البحث)

* مصنّف الكتاب هو علي بن بشري الغرناطي. ويحيط الغموض باسمه كما أحاط بحياته، فلم يرد ذكره في النسخة الفريدة المتبقية من المخطوط إلا مرة واحدة، نجدها في رأس الصفحة الأولى وبشكل ملبس، فربما قرىء الجزء الثاني من اسمه بالألف المقصورة (بشرى) كما قرأه حقاً كولن جورجيس مكتشف المخطوط الذي أتى به من المغرب عام ١٩٤٨، وبالياء كما قرأه ألن جونز. وقد كتب الجزء الأخير من اسمه في الصفحة المذكورة هكذا (الاغرناطي). ولا نعرف عن المؤلف إلا ما نستشفه من معلومات أو تخمينات من خلال اختياراته ومن خلال موشحاته فيها. ولأنه يورد موشحة للسان الدين بن الخطيب الذي توفي عام ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٤ م، فإننا نرجّح أن يعود تاريخ الكتاب إلى مابعد تلك الفترة بقليل. أما النسخة التي بين أيدينا، وتقع في اثنتين وعشرين ومائتي صفحة، فمراكشية على الأغلب ونسخت بالخط المغربي، ونستطيع أن نميّز فيها خطوط ستة نساخ على الأقل، وقد نالت منها العصور، فامحّى كثير من حروفها، ولاسيما في حوافّ الصفحات، ببلل أصابها، وأكلت الدودة من أطرافها وخدّدت في أوراقها، كما فقد جزء من أواخر صفحاتها، فضلاً عن غلافها، مما يؤكد لنا ضياع عدد من موشحاتها، رغم أنها أكبر مجموعة من الموشحات وصلت إلينا حتى الآن. وعدّها بعضهم أنفس مخطوط من نوعه اكتشف في هذا القرن، فبين الأربع والخمسين والثلاثمائة موشحة التي تضمّنها هناك أكثر من ثمانين ومائتين مما لا نعثر عليه في أي مصدر آخر، وبين هذه الأخيرة ما لا يقل عن تسع وعشرين موشحة اختتمت بخرجة رومانسية (الإسبانية القديمة). ■

٩٨ موشحة

• صاح هل من مجير من الهوى ونصير لشجي كئيب يشكو أليم الضمير

شفني ما أعاني وعيل الحب صبري لم أبح باشتياقي إلا لشدة أمري وسقى الخمر ساقي [illegible]

• أرضى الخمور تبيح سر الصدور ولسر الحبيب فيه كل السرور

ففيها عذار اشتياقها يتوقد واهب لنا انتظار بلونه الورد [illegible] ولثغرها كما [illegible]

• واسقني بالكبير على [illegible] الزير [illegible] كالشيب من كف ظبي غرير

ما لعينك مرضى تمين بالاحورار قد حمت منها روضة [illegible] شمس النهار [illegible] الورد [illegible]

• أشرف كالبدور من فت ليال الشعور [illegible] وسرت [illegible]

[illegible] يا غزال [illegible] هذا أيا هلال [illegible] عينيك [illegible]

• [illegible] بالفتح والتثنيه [illegible]

[illegible] عذراء [illegible] الحبيب [illegible]

• [illegible] الزينه [illegible] أميم

٩٩ موشحة

• نسيم الصبا مختم بساعة الاثار عهد بالازهار

[illegible] الشكر لعلك تشفي عليل [illegible] وبالعمر صاح [illegible] بدار [illegible]

• أيض [illegible] ضوء الاقمار بشموس العقار

هي الخمر ما أحلاه مذاقا وما أسناه وما أحذا [illegible] ولا تشفي الأ [illegible]

على [illegible] كؤوس الأزهار [illegible] وكار

[illegible] الحسن [illegible] مع [illegible]

• [illegible] الأحوار [illegible] النهار

صفحة من الكتاب المخطوط «عدة الجليس» وعدد صفحاته ٣٢٢ صفحة ضمت ٣٥٤ موشحة جديدة.

صور حضارية

من حياة ابن عساكر

... وكتابه

«تاريخ مدينة دمشق»

د. مازن المبارك

المقال دعوة تقول: إن على من يقرأ اليوم في كتب التاريخ أن يقرأ بإحدى عينيه، ويرسل العين الثانية تنظر إلى ماحوله، وتقرأ عصره الحاضر؛ وبذلك تتاح له الموازنة بين ماضٍ وواقع معاصر، فلا يسارع إلى وصف ماضٍ بالتخلف ، ووصف حاضر بالرقيّ، فليس التاريخ مجرّد سِيَر للرجال وسرد للأحداث، ولكنه أيضاً هو العبرة المستخرجة والحكمة المستنبطة، وليس الحاضر دعوى إعلام وشعار دعاية، ولكنه الواقع الذي نشاهده ونعيشه. فلتكن قراءتنا للأخبار التاريخية قراءة نستشف ماوراءها من مظهر حضاري. ولتكن نظرتنا إلى الواقع المعاصر نظرة متفلّتة من الزيف والدعاوة.

كتب الطبقات وتراجم الرجال وكتب التاريخ من أكثر الكتب إمتاعاً وأكثرها التصاقاً بالإنسان فرداً ومجتمعاً وأمّة. ولعلها من أكثر الكتب فائدة إذا قرأها الإنسان متأملاً ومعتبراً وموازناً بين ما يقرأ عن الإنسان الماضي ومايراه في حياة الإنسان المعاصر.

إن في كثير من أخبار الرجال ومرويّات كتب التاريخ أخباراً وروايات تعدّ من ظواهر الحضارة وصورها، ولعلنا لانغلو إذا قلنا: إن بعض تلك الظواهر الحضارية الرفيعة لتدلّ على بعض مانفتقده اليوم، ونحن نعيش في القرن الخامس عشر للهجرة والقرن العشرين للميلاد، بل نعيش في عصر تخدّرنا فيه الشعارات وتقنعنا فيه الدعاوى والدعايات!

وفي أخبار ابن عساكر وكتابه «تاريخ مدينة دمشق» نقف على كلمات تمرّ بنا سريعة موجزة، ولكنها تعبّر عن بعض ماأشرت إليه من مدلولات حضارية جديرة بالملاحظة والتأمل.

وابن عساكر هو أبو القاسم عليّ بن الحسن، المؤرخ المحدّث الحافظ. عاش في القرن السادس الهجري (٤٩٩ - ٥٧١ هـ). نشأ في بيت علم وفقه وحديث وقضاء، وأمضى حياته في العلم والتعليم والتأليف معرضاً عن المناصب زاهداً فيها. عرف بثقة الدين، وصدر الحفّاظ، وحافظ

الأمة، وناصر السنّة. واشتهر بإخلاصه وجرأته. قال النووي عنه: «هو حافظ الشام بل حافظ الدنيا، الإمام الثقة الثبت».

ومن أخباره أنه عاش في الشام ولكنه رحل غير مرّة فزار العراق وخراسان ونجداً والحجاز وذكر صاحب طبقات الشافعية عدداً كبيراً من المدن التي زارها ابن عساكر وسمع فيها، وقال إنه سمع في البلاد المتنائية [1]. وهذا الخبر يذكّرنا بآلاف من أمثال ابن عساكر من العلماء والشعراء وطلاب العلم والتجار وطلاّب الدنيا أيضاً الذين كانوا يتنقلون بيسر وسهولة من بلد إلى بلد، ومن قطر إلى قطر، لاتوقفهم سدود، ولا تمنعهم حدود، ولاتعوقهم أنظمة أوقوانين، يقصدون إلى حيث يشاؤون من وطن أمّتهم، محقّقين بذلك مظهراً حضارياً تتجلّى فيه وحدة الأمة فعلاً وعملاً.. ويذكّرنا أيضاً بأنه مرّت أمّتنا بعصور قامت فيها كيانات سياسية متعدّدة ولكنها لم تؤدّ إلى تمزيق وحدة الشعب، ولم تفرّق بين أقطار الأمة! فلقد انحلّت الوحدة السياسية للدولة العباسيّة، وقامت دول وإمارات؛ فكان خليفة عباسي في بغداد، وأمير حمداني في الموصل ثم في حلب، وحاكم إخشيدي ثم فاطمي في مصر، وخليفة أمويّ في الأندلس... وحكّام وأمراء في أطراف من بلاد المغرب، ولكنّ ذلك كلّه لم يكن ليمنع المواطن العربي من أن يتنقّل في تلك البلاد بلا حرج ولامشقّة. يرحل من بغداد إلى قرطبة وهويّته لسانه! ومن عجب أن ذلك أصبح لدينا ذكرى تاريخ ماضٍ وحلمَ مستقبل مأمول، ونحن في عصر نستعيض فيه عن الواقع بالشّعار، وعن الفعل بالقول والادّعاء. **إنها أخبار تذكّرنا بما نحن فيه من حدود مانعة وقوانين حاجزة، وتذكرنا بما يلقاه طلاب العلم اليوم من صعوبة الوصول إلى أي عالم أو أي جامعة في غير بلدهم! مع أننا في عصر جامعة عربية واتفاقات ثقافية ودعاوى قومية وشعارات وحدويّة!**

ومن أخبار ابن عساكر أيضاً أن عدد الشيوخ الذين لقيهم وأخذ عنهم بلغ ألفاً وثلاثمائة شيخ، وبضعاً وثمانين شيخة، سمّاهم في (معجم الشيوخ) و(معجم النسوان)[2] وفي سير أعلام النبلاء أنه أخذ عن ألف وثلاثمائة شيخ بالسماع، وبضع وثمانين امرأةً، وأن ستة وأربعين شيخاً أنشدوه، وأنه أخذ بالإجازة عن تسعين ومئتين من الشيوخ[3] ولاشك أن هذا الخبر ينشر أمام أعيننا صفحة حضارية رائعة للحركة العلمية النشيطة التي عرفها القرن السادس للهجرة.. **وإذا كان هذا العدد الضخم للشيوخ والشيخات في علم واحد هو الذي قصد إليه ابن عساكر، فكم يكون عدد العلماء عامة وفي كل العلوم والفنون؟ وهل نجد اليوم في الأمّة ونحن نعيش في عصر الجامعات، مثل هذا العدد من العلماء المقصودين في علم واحد؟!**

ومن أخبار ابن عساكر أنه كان لايأخذ العلم إلاّ مشافهة عن العلماء، شأن العلماء الأثبات في عدم الأخذ عن الصحف، وقد لخصّ منهجه بقوله(٤):

وإنك لن ترى للعلم شيئاً
يحققه كأفواه الرجال
فكن ياصاح ذا حرص عليه
وخذه من الرجالِ بلا ملال
ولا تأخذه من صحف فترُمى
من التصحيف بالداء العُضال

وقال في آخر كتابه «تاريخ مدينة دمشق»: «هذا مبلغ علمي وغاية جهدي عما وقع وثبت عندي، فمن وقف فيه على تقصير أو خلل، أو عثر فيه على تغيير أو زلل، فليعذر أخاه وليصلح مايحتاج إلى إصلاح».

وفي هذا من الحرص على التثبّت في الرواية، والدقّة في النقل، والأمانة في العزو، والتواضع مايفتقر إليه كثير من المؤلفين والمحققين اليوم.

ومن أخبار ابن عساكر أنه عرف للعلم حقّه، فعزف عن طلب الدنيا بالعلم، وترفع عن المناصب التي عرضت عليه، ولم يقف على أبواب الحكّام والسلاطين، بل كانوا هم الذين يأتون إليه ويحضرون دروسه ويسمعون نصحه وإرشاده، فلقد حضر دروسه الحاكم الصالح نور الدين زنكي -الشهيد- وأعجب به، وبنى له المدرسة المعروفة في دمشق باسم دار الحديث النورية. وحضر دروسه السلطان



• صورة غلاف المخطوط الخامس من تاريخ مدينة دمشق للحافظ ابن عساكر وهو موجود في مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي في ١٩ مجلداً تحت رقم ٣٤٥٠، وتوجد نسخة بالميكروفيلم في المركز تحت رقم ١١٤٣ مصورة عن مخطوطة المكتبة الظاهرية بدمشق.

صلاح الدين الأيوبي ولازمه إلى أن مات، فشيّعه وحضر الصلاة عليه، ووقف على دفنه.

وكان إذا حضر مجالس الحكّام حضرها ناصحاً، وعرّفهم حق العلم.. فقد جاء في أخباره أنه انقطع عن مجلس السلطان صلاح الدين الأيوبي، ولّما عاتبه السلطان في ذلك قال: «نزّهت نفسي عن مجلسك، فإنني رأيته كبعض مجالس السّوقة[٥] لايُستمع فيه إلى قائل، ولايُرَدّ جواب متكلم. وقد كنّا بالأمس نحضر مجلس نور الدين فكنا كأنما على رؤوسنا الطير، تعلونا الهيبة والوقار، فإذا تكلّم أنصتنا، وإذا تكلّمنا استمع لنا». فأمر صلاح الدين مجالسيه أن يتركوا ماجرت به عادتهم إذا حضر ابن عساكر.

وهكذا لم ينس العالم حقّ العلم ووقاره، بل فرضه بحقّه في مجالس الحاكم، وبذلك كانت للعلم وللعالم ولمجلس الحاكم نفسه هيبة ووقار.

وكان لهذه الصلة المباركة بين العالم التقيّ والحاكم المخلص أطيب الأثر في وحدة كلمة الأمة، وقد ظهر ذلك حين اشتدت المعارك مع الصليبيين وسقطت القدس بأيديهم، فقام ابن عساكر ينصح ويوجّه ويحثّ نورالدين على تعبئة القوى وإعلان الجهاد لتحرير البلاد من أيدي الصليبيين، ونشر رسائله التي وضعها في (فضائل بيت المقدس)، و(الزهادة في طلب الشهادة)، و(الأربعون في الجهاد)، و(الاجتهاد في إقامة فرض الجهاد) و(ذم من لايعمل بعلمه) وراح يناشده ويستحث همّته شعراً ونثراً ويعبىء الناس من ورائه. وكانت لهذه الصلة الطيبة السليمة بين العالم والحاكم أعود النفع على البلاد والعباد، وهو النفع الذي يمكن أن يعود في كل زمان ومكان إذا اجتمع إخلاص العالم لعلمه وإخلاص الحاكم لشعبه، وسارا معاً في ضوء العقيدة التي جمعتهما. قال الأستاذ محمد كرد علي: «اتصل الحافظ ابن عساكر بالملكين العادلين نور الدين محمود زنكي وصلاح الدين يوسف بن أيوب اتصالاً وثيقاً، يأخذان عنه الحديث والفقه. وكان لهما المستشار الأمين ينصح ولايقول إلاّ الحق. وكان من تشاكل الأستاذ مع الآخذين عنه في الفكر والسياسة ماعاد بالنفع على الأمة»[٦].

إنها صورة صادقة مشرقة للعالم المسلم يقف أمام الحاكم فلا ينسى نفسه، ولاينسى ربه، ولاينسى عقيدته، فإذا هو صوت الشرع وكلمة الحق.. وصورة للحاكم المسلم يسمع ويقدّر.

ومن ائتلاف الموقفين تتجلى صورة ثالثة هي صورة الرأي السّديد والنصح المخلص يدعمهما عزم القائد وحزمه في إبرام الرأي واتخاذ القرار.

لقد سخّر ابن عساكر علمه لخدمة عقيدته وعقيدة القيادة السياسية والعسكرية المؤمنة التي كان على رأسها الحاكم المجاهد نور الدين زنكي، فاجتمع عامل الفكر والتوجيه، وعامل الحكم والحزم والتنفيذ، فكانت العقيدة وكان العلم وكان الفكر بعثاً للأمة، وكان للعالم دوره في نهضة الأمة ونصيبه في بناء الدولة.

والذي يتابع القراءة في تاريخ ابن عساكر ويطالع فيه أخبار الرجال الذين اختلفت أقطارهم وتعدّدت علومهم.. والذين جمعت بينهم صفة الدمشقي، وهي الصفة التي أطلقها ابن عساكر على كل من ولد أو مات أو مرّ بدمشق -ودمشق إذ ذاك مقصد العلماء، ومحطتهم في طريقهم إلى الحج - يرى **في الكتاب صورة لتاريخ حضاري إسلامي موسوعي ينظر إليها القارىء من خلال منظار ابن عساكر الدمشقي، فإذا هي صورة تغطي مساحة واسعة من العالم العربي والإسلامي في ذلك العصر، وتعبرّ بوضوح عن تلك الحياة الواسعة بأقطارها، الغزيرة بعلمائها، الغنيّة بما فيها من علم وأدب وشعر، المعتزّة بقيمها، تخوض الغمار وتمرّ بالأزمات وتعرف الانحرافات ولكنها تبقى منتصرة في صراعها متمسكة بوحدتها مستعلية بربها.**

وفي مثل تلك الأخبار وهذه الصور مايمتع القارىء ويفيده، وفيها قبس من نور يبعث على الرجاء والأمل وسط ما تحيطنا به حياة اليوم من يأس مظلم وقنوط قاتل. ■

الحواشي :

١ - طبقات الشافعية ٧/ ٢١٥ وانظر سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٥٤ وتبيين كذب المفتري: ٣٢٢.

٢ - معجم الشيوخ ومعجم النسوان، من مؤلفات ابن عساكر. والنسّوان بكسر النون كالنّسوة بالكسر والضم وكالنّساء، جمع للمرأة على غير لفظها.

٣ - سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٥٦.

٤ - انظر سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٦٩ ووفيات الأعيان ٣/ ٣١٠.

٥ - السّوقة : الرعيّة، وكل من ليس بحاكم. يستوي فيه المفرد والجمع والمذكر والمؤنث.

٦ - كنوز الأجداد ٢٩٤.

المصادر والمراجع :

١ - سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٠/ ٥٥٤. مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠٥ هـ و١٩٨٥ م. وفي هامشه مسرد مفصّل لمصادر ترجمة ابن عساكر.

٢ - طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ٢١٥. القاهرة ج٧ سنة ١٩٧٠ م.

٣ - ابن عساكر في ذكرى مرور تسعمائة سنة على ولادته - وزارة التعليم العالي، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب - دمشق ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م.

٤ - ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين. أحمد عبد الكريم حلواني - دار الفداء، سورية ١٩٩١م.

٥ - كنوز الأجداد : محمد كرد علي: ٢٩٣. دار الفكر - دمشق ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م.

٦ - مقدمات التحقيق لكتب ابن عساكر المنشورة:
تاريخ دمشق ج١، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد.
كتاب الأربعين البلدانية، تحقيق محمد مطيع الحافظ.
مجلسان من مجالس ابن عساكر في مسجد دمشق، تحقيق: محمد مطيع الحافظ دمشق ١٩٧٨.

٧ - وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/ ٣٠٩، تحقيق د. إحسان عباس. دار صادر- بيروت. ■

جبرا إبراهيم جبرا وقضية التراث الشعبي

د. ماجدة حمود

المسافة التي قطعتها ألف ليلة وليلة في رحلة الدرس المنهجي العربي والعالمي على السواء شاسعة، انطوت على ملامح من التحليل النفسي والاجتماعي والتاريخي، كما انطوت على دراسات مقارنة وبنيوية لكنها عند جبرا إبراهيم جبرا بداية تفتح الطريق إلى مابعدها.. قضية التراث الشعبي والنظرة إليه والتعامل معه، والدراسة المطروحة تقدم نموذجاً لإنصاف هذا التراث وتصحيح النظرة إليه.

حين يقرأ المرء كتب جبرا النقدية[1]، يلاحظ أنه كثير الدعوة إلى التعمق في الجذور التي هي تعمق في شعاب الذات تحقيقاً لهويتنا الخاصة بنا، أي تحقيقاً لأصالتنا فلا نصبح مجرد أبواق نردد أقوال الغربيين وأساليبهم، بل نجد الناقد جبرا يلفت أنظارنا إلى أن هؤلاء الغربيين قد استفادوا من تراثنا القصصي، لكنهم لم يقفوا عند هذه الاستفادة بل تجاوزوها، وحققوا أساليب خاصة بهم، صاروا بفضلها روّاد العالم في فن القصة.

لهذا نجد جبرا يدعونا، عبر مؤلفاته النقدية، إلى الاستفادة من هذه التجربة، لنستطيع تحقيق إبداع خاص بنا، ينطق بهويتنا ويتحدث عن آلامنا وعن أحلامنا التي نصبو إلى تحقيقها اليوم، عندئذ يصل هذا الإبداع إلى القارئ العربي، ويهز وجدانه، لكونه ينتمي إلى جذوره التراثية الأصيلة، كما يصل إلى القارئ الغربي، لكونه يتناول هموماً إنسانية بأسلوب ذي نكهة خاصة به، أي يلمس في هذا الإبداع شيئاً أصيلاً ينطق بالبيئة الخاصة لمبدعه، فلا يجد فيه تكراراً لأساليب غربية بل استفادة واعية منها، وبذلك يمكن لفن القصة في أدبنا العربي أن يحقق الأصالة والمعاصرة معاً.

صحيح أن فن القصة بشكله الحالي، فن وافد على أدبنا إلا أن في تراثنا الشعبي حكايات كان لها أثر بالغ في تطور هذا الفن



- الملك شهريار يخرج للصيد وفي يده صقره المفضل. من كتاب «ألف ليلة وليلة».

عند الأوروبيين، وقبل أن يصل إلينا، فقد كان أثر «ألف ليلة وليلة» في الرواية الإنكليزية وفي الرواية الفرنسية كبيراً جداً، في القرن الثامن عشر خاصة (وهو لايزال كبيراً حتى اليوم). كان أثراً ربما لايفوقه أو يساويه إلا أثر التوراة والأساطير والملاحم الإغريقية في نوع التركيب، وفي نوع العواطف والأحلام والنزعات التي تسيّر الأحداث وتتحكم بحياة الأشخاص. بل إن روايات عديدة كتبت بالضبط على الطريقة العربية حينئذ نذكر منها روايتي فولتير «كانديد، وصادق».

وألف ليلة وليلة كانت من نوع رحلة الإنسان عبر أحلامه إلى عالم أمثل. وجاءت الرواية بزخمها الشديد في وقت كان فيه هذا الإنسان في حالة طموح ثوري إلى حرية تحقق هذا العالم الأمثل في كل مكان، وفي حالة تمرد على الطغيان. وقد وجدت كلتا الحالتين مسارب للتعبير خلال أساليب تتصل بهذا الكتاب العربي(٢) الرائع الذي ينتمي إلى الحضارة الإسلامية التي فتحت نوافذها على الحضارات الأخرى. لاجدال إذاً في أننا تأثرنا بهذا الفن الأوروبي الجديد. لكن جبرا يؤكد أنّ في تراثنا جذوراً لهذا الفن، أثرت في القصة الأوروبية منذ بداياتها إلى اليوم، وهذا مدعاة للثقة بالنفس وحافز كبير للإبداع؛ **لأن تراثنا أسهم في تطوير الرواية الغربية، فكانت «ألف**

ليلة وليلة» مثالاً يطمح إليه الروائي الغربي ويحتذيه، خاصة بعد أن وجد فيه تجسيداً لعالم المثل (الحب والخير والجمال) وتجسيداً لمقاومة الإنسان في شتى الظروف، حالت دون يأسه أمام العقبات التي تعترض طريقه. وهذه قيم أزلية تهم كل إنسان.

وهكذا رأى الغربيون في «ألف ليلة وليلة» عملاً إبداعياً رائعاً، تعلموا منه وتمتعوا به، في حين كان السلف الذي سبقنا على طريق المحاولات الأدبية -كما يقول جبرا- ينظر نظرة متعالية إلى «ألف ليلة وليلة».

وهذه الفكرة التقليدية ابتلي بها العرب طوال قرون الركود الأدبي بعد سقوط الدولة العباسية، فكانوا يستصغرون شأن هذا الكتاب، الذي يكاد يكون مكتوباً بلغة عامية الصيغ، فاللغة فيه ربما لاتتوهج لفظاً، ولكنها تتألق بما فيها من شعر ومحتوى. ولم يلتفتوا إلى خطورة التركيب، وخطورة الفكر والصور المبثوثة في «ألف ليلة وليلة» ويدهشنا اليوم أننا لم نلتفت إلى ماكان في الكتاب من جوانب نفسية وجوانب اجتماعية، إلا في هذا القرن، هذه الجوانب التي تمثل جزءاً كبيراً من النقد الأدبي. وإذا ماتذكرنا أن الرواية المعاصرة تركز اهتمامها على الجوانب السيكولوجية، وتضيف إليها الاهتمامات التركيبية، ندرك مرة أخرى لماذا تصبح «ألف ليلة وليلة» مهمة بالنسبة إلينا، خاصة وأنها أدب شعبي يزيد من قيمتها؛ فهي تمثل فوران الخيال الإنساني على نطاق الأمة كلها، إنّه فوران بلا حدود...[٣].

يمكننا أن نلاحظ، هنا، أن الناقد جبرا يريد حماية «ألف ليلة وليلة» من النظرة التقليدية، التي تنال منها، لكون لغتها عامية الصيغ، وتغفل مافيها من شعر جيد وصور رائعة وعمق نفسي واجتماعي، مع أن هذه الجوانب هي التي تهم الرواية اليوم، لذلك لايمكن أن تستنفد طاقتها، وتسطع فيها بمرور الزمن جوانب جديدة لم ينتبه إليها أحد من قبل، إضافة إلى أنها تجسد خيالاً مبدعاً لأمة بأكملها، ولهذا كانت أدباً شعبياً أحبه الناس إلا من لايرى في الأدب إلا لغته المعجمية، وصار في الإمكان الاستفادة منها في إبداعنا المعاصر، على حين نجد المقامات - وهي أدب أعجب به التقليديون - قد صارت معجماً بالفعل، فظلت أدباً للخاصة، لا للعامة، وعندما التفت الآخرون إلى أدبنا، لم يجدوا في المقامات تلك الدهشة، تلك الروعة الإنسانية التي وجدوها في «ألف ليلة وليلة»... ولذا فإن المقامات بنثرها قد تلهم كاتباً واحداً أو اثنين، كالبستاني، أو محمد المويلحي، صاحب «حديث عيسى بن هشام» غير أن «ألف ليلة وليلة» تظل

حديث عيسى بن هشام

أو

فترة من الزمن

محمد المويلحي

الناشرون دارف المحدودة .. لندن

- المقامات أدب أعجب به التقليديون فظلت أدباً للخاصة لا للعامة.

بشاعريتها الغامضة ملهمة لألف كاتب وكاتب(٤).

إن مايهم الناقد عندما يمر على التراث هو أن يميز الصالح من الطالح، ولايكتفي بتسليط الضوء على الصالح منه وحسب، وإنما يستخدم مختلف الوسائل لتثبيته في أذهان الناس، يبين مايحتويه من عوامل المعاصرة، وكيف نال إعجاب الغربيين، وهم مبدعو فن القصة العارفون بأصوله، ويبرز كذلك روعة البناء الفني في تلك الحكايات التي تبدو في جزئياتها «حكايات سرد» ولكنها في نطاقها الأوسع حكايات بناء «...بناء متراص تبدأ بقصة شهريار وشهرزاد، حتى هذه القصة فهي مركبة تركيباً متداخلاً رائعاً يكاد يكون حديثاً، وتصبح قصة شهريار وشهرزاد إطاراً لقصص متداخلة بعضها ببعض، تبدو كل واحدة منها كأنها منفصلة عن الأخرى، لكنها في الحقيقة قصة داخل قصة، داخل قصة.... وفي النهاية **فإنّ «ألف ليلة وليلة» (إذا لاحظنا الوعي الزمني فيها) وخلال مئات الصفحات منها، نجد أن هذه القصص في واقعها تركيب واحد متراص كبير، ومحصلتها البحث... البحث عن ماذا؟ البحث عن الشخصية العربية؟ البحث عن الحكمة؟ البحث عن مغزى الإنسان فيما يسعى إليه ويحلم به، منذ أن خلق الله الإنسان؟** وهذا كله فيها، وهو الذي استطاع أن يبهر الحضارات جميعاً منذ القرن الثامن عشر إلى اليوم بحيث أصبحت ألف ليلة وليلة «جزءاً

من التراث الإنساني كله، ومنذ أن ترجمت كان لها أثر في مسار الرواية أينما كتبت في العالم»(٥)

فهي برأيه ليست حكايات سرد متفرقة، إذ كل حكاية منها تتداخل في الحكايات التالية حتى تؤلف تركيباً ذا بناء متماسك موحد، يقترب من الأسلوب المعاصر، بل إن الناقد يرى أن تلك الحكايات «تحتوي على الكثير من السريالية المدهشة لعل منشأها تداعي الأفكار تداعياً حراً، وإذا تمعّنا في حكايات السندباد البحري بما تحويه من غرائب الخيال، وجدنا فيها نزعة سريالية صريحة».

ولكن هناك مايوحّد بناء تلك الحكايات وهو الشخصية العربية في بحثها عن الحكمة تارة، وفي أحلامها التي تكاد تكون أحلام كل إنسان، وبذلك استطاعت ألف ليلة وليلة «أن تؤثر في التراث الإنساني كله، في مجال الرواية خاصة وأن يكون لها مكانة رفيعة في العالم أجمع»

وليس مستغرباً – كما يرى جبرا – ألا نجد أسماء الذين دوّنوا هذه الحكايات، فقد كانوا كل الجماهير التي لا تحد ولا تعدّ في بغداد والقاهرة، الجماهير التي تحيا وتنتعش بالكلمة، رغم ماتعرضت له من طغيان ومجاعات وغزوات الأعداء الطامعين، فحافظت على حيويتها التي ظهرت في كتاب ألف ليلة وليلة، ولذا بقي هذا الكتاب يتسع ويترامى، ويغتني، ويتشعب أحداثاً، ويزداد شعراً، ويفيض بِشراً، ويتعمق إنسانية، ويشتد بالتالي صدقاً في تصوير تجربة المدينة، وتجربة النفس وتجربة الأمة؛ إذ تتغلغل في ذاتها، وتجسد رموزها، حيث اختزنت ذلك الجوهر الغامض الذي استعصى على الظلام مهما تكاثف، على حد قوله: «**لقد ضمت ألف ليلة وليلة معاناة الإنسان، كما ضمت أحلامه، ومحاولته تجاوز قيوده، كل ذلك عبر خيال مبدع، فاستطاعت بذلك أن تبقى على الزمان، وتعيش في ضمائر الناس في كل مكان**».

إن جهد جبرا في هذا المجال يشكل محاولة لإنصاف تراثنا الشعبي، ويبدو لنا كأنه دعوة إلى وجوب قراءته قبل الشروع في الكتابة، فهو حين يحدثنا عن تجربته، يبين للقراء عامة وللكتاب خاصة، كيف تعلم أسس الكتابة من تراثه في فن جديد عليه هو فن الرواية، كما تعلمها من الرواية الغربية أيضاً، خاصة حين يستدرج القارىء ليكون عنصراً آخر في تجربته الروائية، إنه يجعل من استفادته من التراث في كتابته الروائية مثالاً حياً، يقدمه للكتّاب والنقاد الذين يشككون بأهميته، ويرون فيه عائقاً للإبداع، فيبين لهم كيف كان التراث أحد الأسس التي شكّلت تجربته الإبداعية، فكان

بذلك روائياً مبدعاً في رأينا.

إنه بذلك يريد أن يؤكد أن إبداع الكاتب لن يكون بمتحه من معين واحد هو الغرب، فلا بد له من مورد آخر هو التراث «**إننا في النهاية ندور، مهما ابتعد خط سيرنا، دورة كاملة، ونعود إلى جذورها، فنحن ربما عدنا مرة ثانية عن طريق الرواية الغربية إلى جذورنا في «ألف ليلة وليلة» وكتب الحكايات الأخرى، أي إلى جذورنا في الأدب الذي أوجدناه نحن عن طريق مجالسنا منذ ألف سنة**، وبذلك فإن ماأكتبه يجب ألا يعد بشكل قاس، كأنه محاولة جاءت في أفضل الأحوال من السماء، وفي أسوأ الأحوال من الرواية الأوروبية[٧].

بذلك نستطيع أن نعد جبرا إبراهيم جبرا أكثر النقاد اهتماماً في بيان علاقة التراث العربي بفن القصة، ولعل تجربته الإبداعية في هذا المجال قد ساهمت في لفت نظره إلى أهمية هذا التراث القصصي الذي علّم العالم مالم يعلّمه إياه بوكاتشيو وشكسبير وسرفانتس، على حد قوله، أي الفن الروائي وإمكاناته الذهنية والمعمارية، فعلمه بذلك أدب الحضارة الحديثة.

إنه يريد أن نثق بأنفسنا ونرى ماقدمه تراثنا إلى الحضارة الإنسانية لنتجاوز كثيراً من عقد النقص التي تتربع في داخلنا، فنستطيع أن نبدع على صعيد الفن وغيره وإن سبقتنا أوروبة بمراحل، شرط أن نكوّن أنفسنا، **فنمتلك وعياً تاريخياً يجعلنا لانقلد غيرنا، ولانعيد التجارب الماضية، وإنما نتعلم من هذا وذاك، ونأتي بما يعبر عن عصرنا وأصالتنا معاً**. ■

الحواشي :

١ – أعمال جبرا إبراهيم جبرا النقدية هي:
– «الحرية والطوفان»، «النار والجوهر»، «ينابيع الرؤيا»، «الرحلة الثامنة»، «الفن والحلم والفعل»، «تأملات في بنيان مرمري»، «معايشة النمرة وأوراق أخرى».
٢ – جبرا إبراهيم جبرا : ينابيع الرؤيا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط/ ١، ١٩٧٨، ص ٦٩.
٣ – المصدر السابق ص ٧٠.
٤ – المصدر السابق ص ٧١.
٥ – المصدر السابق ص ٦٨– ٦٩.
٦ – جبرا إبراهيم جبرا : معايشة النمرة وأوراق أخرى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط/ ١، ١٩٩٢– ص ١١٤.
٧ – ينابيع الرؤيا ص ٧١.

منوعات عن
قصبة شالة وماإليها

محمد المنوني

كلية الآداب - الرباط

حسب تخمينات الباحثين، فإن منطقة شالة القديمة تبتدىء من هضبة باب زعير شرق مدينة الرباط - المغرب إلى أن تحاذي منخفضات وادي أبي رقراق، فتمتد متعاطفة حتى تتصل بفم الوادي عند قصبة الاوداية.

وفي عصر ماقبل الإسلام، عرفتها الدول التي مرت بالمغرب في تاريخه المعروف، غير أن الذين استمرت آثارهم بشالة هم الرومان.

وفي العصر الإسلامي، يرجع أقدم نص جغرافي عنها إلى منتصف القرن الهجري الرابع، فيذكرها ابن حوقل[1] في هذه الفقرة: «وبشله رباط يرابط فيه المسلمون، وعليه المدينة الأزلية المعروفة بشله القديمة، وقد خربت، والناس يسكنون برباطات تحف بها، وربما اجتمع في هذا المكان من المرابطين مائة ألف إنسان، يزيدون في وقت وينقصون لوقت، ورباطهم على برغواطة».

هذه ارتسامة ابن حوقل عن شالة خلال المائة الهجرية الرابعة، والفقرة غنية بالإشارات التاريخية.

فشالة القديمة وجدها الرحالة خربة عند منتصف القرن الرابع الهجري، ويبدو أن هذا كان واقعها منذ ظهور الإسلام بالمنطقة.

كما أن وصف شالة بالقديمة مؤشر على وجود سلا الحديثة في الفترة ذاتها، فلا قديم دون

حديث. وإلى هذا يفيد ابن حوقل أن شالة موضع جهاد لنشر الإسلام، وهي خطة بدأها الإمام إدريس الأول، فكانت شالة القديمة أول جهة قصدها بالجهاد من عام ١٧٢ هـ: سنة بيعته[٢] فأفاد «كتاب صفة الأرض» استمرار هذه الظاهرة إلى مابعد جلاء الأدارسة عن شالة.

وسيأخذ المبادرة -مرة أخرى- أبو الكمال تميم اليفرني، وكانت قاعدة إمارته هي شالة، فكان يغزو منها برغواطة في كل سنة مرتين، إلى أن يُتوفّ سنة ثمان وأربعين وأربعمائة [٣]

فيضطلع -بعده- بالجهاد دولة المرابطين، إلى أن يقضوا على هذه الطائفة نهائياً، ويتركوا بالمنطقة الرمز الكبير، والأثر العظيم الذي خلّد ذكرهم عالياً. وخلّد مأثرة شالة في الوقت نفسه، استشهاد ماهد دولة المرابطين الإمام عبدالله بن ياسين، حيث يرقد في مشهده قريباً منها.

وهكذا نتبين أن المنطقة موضع جهاد، ومركز مقصود لتجمع المجاهدين، حيث كانت أعدادهم تتصاعد حيناً إلى مائة ألف مرابط أو أكثر.

إن تجمّع المجاهدين ظاهرة انتقلت إلى مدينة الرباط بعد تأسيسها في أواخر القرن الهجري السادس، فكانت الجيوش الموحدية تمر بها وهي في طريقها إلى الأندلس. في مشهد بطولي أثار إعجاب مؤلف «الاستبصار»[٤]، فسجل ملاحظته في هذه الارتسامة:

«وهذه المدينة قد شرفها هذا الأمر العزيز وكرمها، بما أحدثه فيها من المباني الرفيعة، والمنارة البديعة، وماهي وقت مرور المحلات عليها إلا من عجائب متنزهات الدنيا، لاسيّما في الأعوام الخصبة والفصول المعتدلة، ناهيك من ساحل طوله نحو الميلين وعرضه نحو الميل مملوء بالبشر، والزوارق في الوادي بركابها، والمنارة المطلة، وعلاقات الثمار، وعقد الزيتون، وجدر الكرمات، وقباب الجلوس للسادات -أيدهم الله- ظاهرة، وقبلة الجامع وأكثر منازه ذلك الحصن المشرف ظاهرة من المدينة، وماهي في أوقاتها إلا أملح من ديار مصر، ومايحكى عن دجلة والفرات، فإنا لله على الفناء والممات، ولله در من قال:

النـاس مثـل حبـاب ... والـدهـر بـركـة مـاء
فعـالم في طفـو ... وعـالم في انـطفاء

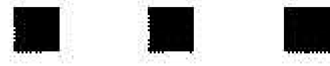
والآن نعود إلى ابن حوقل، حيث يشير إلى رباطات تحف بشالة يسكنها الناس، ولابد أن يكون بين الرباطات موقع بناية شالة المرينية، ومن المؤكد أنها تستوعب القلعة القيادية لكل من الأدارسة وبني يفرن كلها أو بعضها، وهي حقيقة تؤيدها الحفائر الأثرية سنة ١٩٦٠ م بشالة، فقد كشفت هذه التقنيات، عن تخطيط محرابين، وحدودهما أسفل محراب مسجد

يعقوب بشالة المرينية، فيرجّح المكتشفون أن أحد المحرابين لمسجد من العصر الإدريسي، والثاني من عصر بني يفرن(٥).

وعن الدولة الأخيرة كشفت الحفائر قبة مدفن الأمير تميم اليفرني وولده محمد لصف قبلة مسجد يعقوب بشالة(٦).

ومرة ثالثة يذكر الأستاذ الأثري عثمان إسماعيل، كشفاً في المكان ذاته لقاعة شهداء موقعة طريف بالأندلس أيام أبي الحسن المريني، ويحدد مكانها بين الجدار الشرقي لمصلى مسجد يعقوب المريني، وبين الجدار الغربي لصحن زاوية الخلوة(٧).

ومن شأن هذا الاكتشاف أن يحدد الطابع الجهادي للمنطقة، ويبرز واحدة من حيثيات قدسية شالة.



لم يبق -بعد هذا- إلا أن ينتهي بنا المطاف إلى عمق شالة المرينية، حيث قامت الدراسات حولها: مغربية ومشرقية وغربية. فلنقف حيث انتهى هؤلاء، في محاولة لتقديم إضافة جديدة عن المآثرة المرينية.

ومن ذلك أن المؤلفين - المنوه بهم - ذكروا القبة المشيدة على ضريح أبي الحسن المريني، مع البناية المتصلة بها التي تسمى زاوية، غير أنهم لم يذكروا لذلك مستنداً تاريخياً، ولانقشاً أثرياً.

ولحسن الحظ أن أثار هذه النقطة بالذات مؤلف عاصر إنشاء البنيتين معاً، وهو إبراهيم ابن الحاج النميري، فسجّل في «قبض العباب»(٨)، عن أبي عنان أنه هو مؤسس القبة - بشالة - المرفوعة على مشهد والده أبي الحسن، وزوجه شمس الضحى.

وعن وصف البناية وهي في جدتها يذكر أنها من عجائب الدنيا، وأعظم مصانعها: أزرها من الرخام الأبيض الناصع، وقد ازدانت الواحة بالزخرفة والتنميق، وغطت واجهات البناية حتى اتصلت بتيجان الأقواس.

وبعد هذا ينتقل المصدر نفسه إلى مدرسة شالة، وهي التي تسميها الدراسات -غلطاً- بالزاوية، وينسب بناؤها لأبي سعيد المريني الأول، غير أن ابن الحاج النميري يثبت -بحكم معاصرته- أن مؤسسها هو أبو عنان، ويصفها وهي في رونق جدتها، فيقول بعد ذكر مشهد أبي الحسن:

«وهي متصلة بهذه القبة الجديدة، مجاورة منها للروضة السعيدة: مدرسة شامخة البناء، وثيقة الأساس، منفسحة الأرجاء، حيطانها كالأسوار، لابسة البياض. رائقة الجمال، وقد رتبت أحسن ترتيب، وبوبت مداخلها أحسن تبويب، وفرشت من الزليج بما هو أجمل من ممطور الأزاهر، ونسقت غرفها على رؤوس بيوتها نسق التيجان...». ثم يختتم بوصف مصلى المدرسة، وصهريجها الذي يشق صحنها.

■ ■ ■

وننتقل –الآن– إلى ابن الخطيب[9] وهو يدوّن «نفاضة الجراب» فيخبرنا عن موسم أغر عايش مباهجه وهو مجاور بشالة، والقصد ليلة سبع وعشرين من رمضان، فيصف لسان الدين الاحتفال المقام في الحرم المريني بهذه المناسبة حيث يقول:

«... وأظلت ليلة سبع وعشرين إحدى مواسم شالة، المختصة باستجلاب الأمم، وتخييم الخيم، واحتفال الأسواق، ورفع المغارم، والوليمة لأهل الخير وأولي الهيئات بالضريح، فاحتفل معتاد الإطعام... واستدعيت أصناف الحلواء، واستكثر من الوقود، واستدعي إلى الإيوان لصقها – المعدّ لذلك – المغنون، واستحضر القاضي والعدول، والخواص والأعيان والأمناء».

وهكذا قدمت لنا ارتسامة ابن الخطيب وصفاً لإحدى الحفلات الدينية بشالة المرينية، مع إشارة لتعدد مواسمها، ثم دللت الفقرة نفسها على عمارة مدينة الرباط آنذاك، مما استلزم نصب القاضي والعدول، فضلاً عن وجود طبقة الخواص والأعيان والأمناء.

■ ■ ■

ونقف مع ابن الخطيب مرة ثانية: فقد نظم موشحة تطرّق فيها إلى مدح أبي سالم المريني، بعد ماأفاض في ذكر سلا والرباط وشالة:

يـاحـادي الجِمال   عـرج على سـلا   هـام بـالجَمال   قلبي ومـاسـلا

عـرج على الخليـج   والـرمل والحـمى
في المنظر البهـيج   بالبيـض كالـدمى
والأبطـح النسـيج   مـن صنعـة السما

للـه من جـلال   تختـال في حُـلا   لم تلف في اعتـدال   عنهـن معـدلا

وطـف من الـربـاط   بـركن طـائف
بمنـزل اغتبـاط   دار الخـلائـف
مقـدس المـواط   جـم العـوارف

كم من سنـا هـلال   بـأفقـه انجلى   أنحى على الضلال   فـانجـاب وانجلى

جني النعـيم دان   والبحـر والغـدير
أهلّـة الشـواني   في أفقـه تسـير

وقهـــوة الـــدنـــــان يـــديـــرهـــا مـــديـــر
أغر كالغزال مقلد الطّلا يسطو ولايبالي بالأسد في الفلا

ونختم هذا العرض بإشارة تبرز عالماً من شالة دون أن توضح اسمه، وذلك مايسجله ابن القاضي وهو يسرد إنشادات شيخه محمد بن يوسف الترغي، وهكذا يأتي في «درة الحجال»[11] والسياق عن العالم الترغي: وأنشدني لبعض علماء شالة:

كل العلوم سوى القرآن زندقة
إلا الحديث وإلا الفقه في الدين
والعلم منبع ما قد كان حدثنا
وماسوى ذاك وسواس الشياطين

القاضي عياض في الإلماع[12] ينسب البيتين لبعض علماء شاش، كأن هذه البلاد تصحفت عند ابن القاضي بشالة. ■

هوامش بالمصادر:

١ – «كتاب صورة الأرض» منشورات دار مكتبة الحياة– بيروت دون تاريخ ص ٨٢.
٢ – «روض القرطاس» لابن أبي زرع، المطبعة الحجرية بفاس ١٣٠٥ هـ: ص ٧.
٣ – «المصدر» ص ٧٤.
٤ – دار النشر المغربية – الدار البيضاء ١٩٨٥: ص ١٤١.
٥ – «حفائر شالة الإسلامية» د. عثمان عثمان إسماعيل، دار الثقافة– بيروت ١٩٧٨: ص ٣٠٧ ومابعدها.
٦ – «المصدر» ص ٢٠٤ ومابعدها.
٧ – «المصدر» ص ٣٤٠.
٨ – مخطوط الخزانة الحسينية بالرباط. س ٣٢٦٧: ص ٥٧– ٥٩.
٩ – «نفاضة الجراب»: السفر الثاني، دار الكاتب العربي– القاهرة دون تاريخ: ص ١٢٢– ١٢٣.
١٠ – «المصدر» ص ١٦٩– ١٧٠.
١١ – نشر المكتبة العتيقة بتونس ودار التراث بالقاهرة عام ١٣٩١/ ١٩٧١: ٢/ ١٧٤.
١٢ – نشر المؤسستين ١٣٨٩/ ١٩٧٠: ص ٤١.

مخطوطات ابن الهائم الرياضية

أتاحت حركة الترجمة - التي ازدهرت في بغداد أوائل القرن الثالث للهجرة - دراسة معظم المؤلفات الرياضية التي وصلت إليها حتى ذلك الحين. فاطلع العلماء العرب خلال تلك المرحلة على «عناصر» إقليدس، و«سوائل» أرخميدس، و«مخروطات» أبولونيوس، و«أشكال» مينالاوس، و«مجسطي» بطليموس.

د. مسلّم الزيبق

إلاّ أن هذه المعلومات غدت قاصرة عن تلبية متطلبات الحياة العلمية المتصاعدة آنذاك، كما أنها لم تعد تفي بالإجابة عن كثير من التساؤلات (المنطقية – الرياضية) التي بدأت تثار حينذاك. وقد أدى هذا الأمر إلى شروع العلماء المسلمين في التأليف الرياضي بمختلف جوانبه المتمثلة بأساليب العد، واللوغاريتمات الحسابية، والعلاقات الجبرية، ونظرية المتوازيات، وحساب المثلثات.

وقد بقيت المدرسة الرياضية البغدادية متألقة بأعلامها البارزين كالخوارزمي، والفرغاني، وثابت بن قرة، والبوزجاني، والكرجي لأكثر من ثلاثة قرون. ثم تبع ذلك نهوض عدة مدارس رياضية في أنحاء الدولة العربية الإسلامية المترامية الأطراف. فبرزت مدرسة ابن الهيثم في العصر الفاطمي، وانتعشت مدارس دمشق في العهد الأيوبي، وبرزت مراغة، وبخارى، وغزنة، إبان المرحلة المغولية.

وبالرغم من أن مستوى التأليف والإبداع كان قد بدأ يتأثر سلباً بالظروف السياسية والاجتماعية أواخر القرن الثامن الهجري، إلاّ أن هذا لم يمنع من تألّق بعض المراكز العلمية الهامة، وكان أبرزها مدينتا سمرقند، والقاهرة.

ويطلق الباحثون على النصف الثاني من القرن الثامن للهجرة تسمية عصر ابن الهائم في الرياضيات[1]، وهو العصر الذي شهد إنجازات الكاشي، وقاضي زاده في

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر

بحمد الهي ابتدي ما أحاول واهدي صلوة مع سلام بكل

على المصطفى خير الانام واله واصحابه ثم الدعا متواصل

الى الزمان المنتمي لجلالة علي عليه

الورقة الاولى من مخطوط (المقنع في الجبر والمقابلة) رقم ٢٦٠١

سمرقند، والقلصادي، واللجائي في الأندلس، وابن المجدي، وابن الشاطر في القاهرة.

وابن الهائم هو : أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمادالدين المصري، ثم المقدسي.

ولد في القاهرة سنة ٧٥٦ هـ[٢] وتلقى علومه على أبي الحسن علي بن عبد الصمد الجلابري المالكي، فبرع في الفقه واللغة والفرائض والرياضيات، وتصدّى للتدريس والإفتاء، فذاع صيته، وصار ذا مكان مرموق في أنحاء مصر[٣]. ولمّا تولىّ زين الدين أبو بكر بن عرفات القمني التدريس في المدرسة الصلاحية بالقدس سنة ٧٩٧ هـ[٤]، اصطحبه واستنابه في التدريس، فأصبح من شيوخها وعلمائها البارعين، وبقي فيها إلى أن توفي سنة ٨١٥ هـ، ودفن في مقبرة مأمن الله بالقدس الشريف[٥].

مؤلفاته :

صنّف ابن الهائم في الفقه والأدب واللغة والفرائض والرياضيات. ومن أهم كتبه: «إبراز الخفايا في فن الوصايا»، و«التحفة القدسية»، و«ترغيب الرائض في علم الفرائض»، و«المسرع»، و«الحاوي في الحساب»، و«شرح الأرجوزة الياسمينية»، و«غاية السول في الإقرار بالدين المجهول»، و«الفصول المهمة في مواريث الأمة»، و«القواعد المنظومة»، و«اللمع في الحساب»، و«مفتاح الحساب»، و«المقنع في الجبر والمقابلة»، و«الممتع في شرح المقنع»، و«المعونة في حساب الهواء»، و«نزهة النظار في صناعة الغبار»، و«نزهة النفوس في بيان حكم المتعامل بالفلوس». [٦]

وقد حظيت هذه المؤلفات بأهمية كبيرة وشهرة واسعة، نظراً لغزارة المادة العلمية فيها، وإلمام المؤلف بالموضوعات الرياضية التي صنفت من قبل، ومناقشتها، والتعليق عليها، ونقدها. ولعل خير دليل على شهرة هذه المؤلفات، تلك الشروح المستفيضة لمصنفاته في الفرائض والحساب والجبر والمقابلة، التي اعتُمد عليها حتى مراحل متأخرة من التأليف الرياضي.

ويحتفظ «مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث» بمجموعة من مخطوطات ابن الهائم في العلوم الرياضية، وهي:

١ – «المقنع في الجبر والمقابلة»: نسختان.

٢ – «المسرع في شرح المقنع»: نسخة واحدة.

٣ – «نزهة النظار في صناعة الغبار»: نسختان.

٤ – «مرشدة الطالب إلى أسنى المطالب»: نسختان.

٥ – «اللمع في الحساب»: نسخة واحدة (ط).

٦ – «الدر الثمين في شرح أرجوزة ابن الياسمين».

وفيما يلي إيضاحات عن المخطوطات التي لم تطبع بعد:

كتاب المسرع شرح المقنع في الجبر
والمقابلة تأليف الشيخ الإمام العالم
العامل شهاب الدين ابو العباس احمد بن محمد
بن الهائم ... تغمده الله بالرحمة
والرضوان واسكنه فسيح الجنان
بمحمد وآله اجمعين

لبعض الفضلاء
للفتى الهائم حل قد محا الاشكال محوا
... بما املا اشبع الطلاب نحوا

الورقة الاولى من مخطوط (المسرع في شرح المقنع) رقم ٢٦٠١

١ – «المقنع في الجبر والمقابلة»:

نسخة نفيسة رقمها ٢٦٠١، مكتوبة بقلم معتاد سنة ٨٦٧ هـ، وهي تشغل ثلاث ورقات ضمن مجموع يتألف من تسع عشرة ورقة (١٩ × ١٤ سم). والمخطوط منظومة لامية من البحر الطويل، كتبت عناوين فصوله بالحمرة، واحتوت هوامش الورقة الأولى منه على بعض الشروح.

بدايته :

وبعد فعلم الجبر علم معظم
يميل إليه المتقون الأفاضل
وإني لحاو لبّه في قصيدة
بها يكتفي ذو فطنة ويطاول

ونهايته :

وأبياته تسع وخمسون أنشئت
بالاقصى وشهر اليمن فهي تطاول
ربيع من العام الذي ضبط عدّه
بذال وضاد فالبنا متكامل

أما النسخة الثانية ورقمها (٤٧٦١) فقد كتبها أحمد السباع بقلم معتاد سنة ١١٩٣ هـ.

وتشغل ثلاث ورقات ضمن مجموع من خمس ورقات (١٩ × ١٤,٥ سم). وهي بحالة جيدة، كتبت عناوين الفصول فيها بالحمرة، وهوامشها خالية من الشروح أو التعليقات.

نسخ المخطوط:

– دار الكتب المصرية: ٢٨٩/ ٣ تج، ٦١١/ در، ٧٠٣/ ٥ دج، ٣٦٠/ ٢ در.
– مخطوطات برلين / اهلورد: ٥٩٩١.
– غوتا / برلين : ١٤٨٤، ١٤٨٥.
– مكتبة الأوقاف / بغداد : ١/ ٥٥٠١ مجاميع.
– المكتبة الوطنية / باريس: ١١٠٧.
– الجامعة الأميركية / بيروت: ٥٨٢.
– مكتبة حسن حسني عبد الوهاب/ تونس: ١٨٢٦٣.
– الظاهرية / دمشق : ٤٨٢٣.

شروحه :

– «الممتع في شرح المقنع» : لابن الهائم.
– «المسرع في شرح المقنع» : لابن الهائم سنة ٨١٠ هـ.
– «القول المبدع في شرح المقنع»[7]: لبدر الدين محمد بن محمد بن أحمد سبط المارديني سنة ٨٧٦ هـ.
– «فتح المبدع في شرح المقنع»[8]: لأبي يحيى زكريا الأنصاري.
– «شرح المقنع»[9]: لقاسم بن صلاح الدين الخاني.



٢ – «المسرع في شرح المقنع»:

نسخة قيمة رقمها ٢٦٠١، كتبها أحمد ابن شعبان بقلم معتاد سنة ٨٦٧ هـ في القدس. وهي تشغل ثلاث عشرة ورقة ضمن مجموع من تسع عشرة ورقة (٩ × ١٤ سم). أصابتها الرطوبة بشكل ملحوظ، فيما كتبت مداخل الفصول

والفقرات بالحمرة.

بداية المخطوط : «أما بعد حمد الله... فالغرض اختصار المقنع وتسمية مختصره بالمسرع، ليسهل على من قصرت همته تناوله، والله المستعان في كل ماأحاوله...».

ونهايته : «... السادسة... فقابل، واعمل عمل السادس يكن أربعة وعشرين، فقس على هذه الأمثلة مما يرد من أشباهها».

ويتألف المخطوط من عدة فصول، يتعلق بأسماء الأنواع المجهولة للأعداد، ومراتبها وأسوسها، والجمع والطرح، والضرب والقسمة، ومختلف المسائل الجبرية. وكان ابن الهائم قد أنجز هذه الرسالة في القدس سنة ٨١٠ هـ، اختصاراً لرسالته: «الممتع في شرح المقنع» وهي كذلك شرح لرسالته الشهيرة: «المقنع في الجبر والمقابلة»[١٠].

نسخ المخطوط :

- برلين / اهلورد : ٥٩٩١.
- معهد المخطوطات : فيض الله ١٣٦٦/ ف ٨٨٣.
- مكتبة الأوقاف / بغداد : ١٠/ ٥٥٠١ مجاميع.
- مكتبة حسن حسني عبد الوهاب/ تونس: ١٨٢٦٣.
- الظاهرية / دمشق : ٢٤.
- دار الكتب المصرية : ١٧ تر، ٢٨٩/ ٤ تج، ٣٨١٥/ دك.

■ ■ ■

٣ - «نزهة النظار في صناعة الغبار» أو «نزهة الحساب»:

كتبت النسخة الأولى رقم ٢٦٠٣ بقلم معتاد سنة ١٢٠٨ هـ ، وتقع في أربع وعشرين ورقة، ضمن مجموع من اثنتين وستين ورقة (٢٢ × ١٦ سم). أصابها قليل من الرطوبة في حوافها، وقد كتبت عناوينها الرئيسية والأعداد بالحمرة.

بداية المخطوط : «أما بعد: حمداً لله... فإن كتابي الموسوم بالمرشدة في صناعة الغبار لما تلقي بالقبول وحظي بالانتشار... فالتمس مني أن ألخصه مبالغاً في الاقتصار، فأجبته... حاصراً له في مقدمة وبابين وخاتمة...».

ونهايته : «... الخاتمة... الفصل الثاني.. ومن رام التبحر في التصرف في المجهول بالأعداد المتناسبة فعليه بالمعونة التي فاقت كتب هذا الفن قاطبة».

أما النسخة الثانية ورقمها ١٧٢١، فنسخها محمد علي بقلم معتاد سنة ١٢٥٦ هـ. وتتألف من خمس وعشرين ورقة من القطع الصغير (٢١ × ١٥ سم). أصابتها الرطوبة قليلاً، كما كتبت عناوينها الرئيسية ومداخل الفقرات فيها بالحمرة.

ويتألف المخطوط من مقدمة وبابين

وخاتمة. تناولت المقدمة أسماء الأعداد، وأشكالها ومنازلها. فيما تناول الباب الأول أعمال الصحيح من جمع وطرح وضرب وقسمة وتجذير. أما الباب الثاني فتطرق إلى أعمال الكسور وسوابقها ولواحقها. وتضمنت الخاتمة فصلين في الأعداد المتناسبة، والعمل بالكفات.

نسخ المخطوط :

- المتحف العراقي : ٢٣١٤٤/ ١، ١٤٠٨٦، ٢١٨١٩/ ٢، ٤٤٣٧/ ١، ١٤٠٦٩/ ١، ١٠٥٧٢/ ٢.
- الأزهرية : ٥/ ٣٦١٣، ٤٣/ ٥٧٦٩، ٤٤/ ٦١٦١، ٦٨/ ٧٨٤٠، ٢٢١/ ١٦٢٤٩، ٢٩٢ السقا/ ٢٨٩٠٧، ٣٠٩/ حليم ٣٤٥٧٤، ٣٢٦/ صعايدة ٣٩٩٨٠.
- جامعة استانبول : ١٥٣٤.
- نور عثمانية : ٢٩٧٥.
- أفيون قراحصار : ١٧٢١٨.
- البلدية / الإسكندرية : ن ٣٧٠٦- ج، ن ٣٩٠٢- ج.
- مكتبة الأوقاف / بغداد : ٤/ ٢٨٩ مجاميع.
- الجامعة الأميركية / بيروت: ١٢٠٨، ٥٨٦، ٥٨٥.
- الظاهرية/ دمشق : ٩٥٥٧، ٣٠٧٩، ٦٩٩٣، ٣٠٨١، ٤٢٦٩، ٤٥٨٨، ٤٨٩٨، ٥٤٢٨، ٦٦٦٦، ٧٣١٩، ٣٠٨٨، ٣٠٨٩.
- غوتا / برلين : ١٤٧٩، ١٤٨٢.
- دار الكتب المصرية : ٢٩٧ در، ٣٠٨ در، ٢٢٦/ ٣ دج، ١٤٧ تـر، ٦٨٨/١ طج، ٥٨٢/ ٤ طج، ٧٧٨/ ٢ زك، ١٧١٠٤ ك، ١٨٣٦٣ ك، ٨٣/ ٢ در.

شروحه :

- «عدة الحاسب وعمدة المحاسب»: محمد ابن إبراهيم الحلبي (شرحه سنة ٩٥٤ هـ)[١١]
- «شرح النزهة»: شهاب الدين أحمد بن محمد الغزي[١٢].
- «تحفة الطلاب في شرح نزهة الحساب»: جمال الدين بن أعز الدمشقي[١٣].
- «كشف الأستار عن نزهة الغبار»: حسين ابن محمد المحلي (شرحه سنة ١١٦٣ هـ)[١٤].
- «شرح النزهة»: يحيى بن تقي الدين بن إسماعيل بن عبادة الحلبي (شرحه سنة ١٠٠٧ هـ)[١٥].
- «شرح النزهة»: محمد بن أبي الخير الدمشقي[١٦].
- «شرح النزهة»: عبد القادر الفيومي[١٧].
- «رفع النقاب عن نزهة الطلاب»: عبدالله ابن حسن العفيف الكازوني[١٨].
- «مناهل السرور لمبتغي الحساب

والكسور»: محمد بن عابدين[١٩].



٤ - **«مرشدة الطالب إلى أسنى المطالب»:**

نسخة تامة برقم ٣٥٤١، كتبها بخط نسخي سنة ١٢٢٨ هـ محمد بن اسماعيل الساعجي، وتتألف من ثلاث وخمسين ورقة من القطع المتوسط (٢١,٥ × ١٥ سم).

بدايته : «الحمد لله.... أما بعد: فإن بعض الراغبين في تعلم الحساب التمس مني مقدمة في هذا الباب... بادرت إلى إجابته بما سأله حاصراً له في مقدمة وقسمين وتكملة...».

ونهايته : «... التكملة... الفصل الثالث... فالذي وقع في رتبة الآحاد فهو أحد الأعداد، وعدة عشراته هو العدد الثاني، وعدة مئاته هو العدد الثالث».

أما النسخة الثانية ورقمها ٢٨٠٢ فتعود إلى القرن الحادي عشر الهجري، مخرومة الأول، وتتألف من سبع وعشرين ومائة ورقة (٢١ × ١٥ سم) أصابها كثير من الرطوبة. كتبت بخط نسخي، وعناوينها الرئيسية والمداخل بالحمرة، واحتوت هوامشها على بعض الشروح والملاحظات.

ويتألف المخطوط من مقدمة وقسمين وتكملة:

- المقدمة : تحوي عدة مسائل تتعلق بتعريف علم الحساب وعملياته المختلفة.
- القسم الأول : يتألف من ستة أبواب في التضعيف والتنصيف والجمع والطرح والضرب والقسمة.
- القسم الثاني : يتألف من مقدمة وعشرة فصول. تحوي المقدمة مسألتين؛ الأولى: في تعريف الكسر وأسمائه الأصلية وصوره. والثانية: في تعريف أقسام الكسر. أما الفصول فهي: في بيان معنى البسط وكيفيته، في بسط الصحيح مع الكسر ،في معرفة النسبة بين عددين، في الجمع والعمل فيه، في الطرح والعمل فيه ، في الضرب، في القسمة والتسمية- في التحويل، في الجزء ومقداره، في الجبر والخط ومعرفة مافوق الكسر والغرض في الأولين.
- التكملة : تحوي ثلاثة فصول. الأول: في الأعداد المتناسبة، الثاني: في العمل بالكفات، الثالث: في ذكر مسائل مجهولة واستخراجها.

نسخ المخطوط :

- شهيد علي / استانبول: (٢٧٠٦/ ٤).
- جامعة استانبول : (١٢٢٥).
- المتحف العراقي : (٣١٥٦٥).
- الأزهرية : (٤/ ٢١٦٢)- (٥١/ ٧٦٥١)- (٣٣٠/ زكي ٤١٦١٢)- (٣٩٦/ ٥٣٦٦٠).
- البلدية / الإسكندرية: (ن ٥١٩٢ ج).

- دار الكتب المصرية : (٣٨١٥ ك)- (٤٢٩٠ ك).
- غوتا / برلين : (١٤٧٨).
- الظاهرية / دمشق : (٣٠٧٧)- (٤٩٠٤)- (٤٤٢٨).

شروحه :

- «بغية الراغب في شرح مرشدة الطالب»: عبدالله بن محمد بن عبدالله الشنشوري. (شرحه سنة ٩٩٥ هـ)[٢٠].



٥ - «الدر الثمين في شرح أرجوزة ابن الياسمين».

نسخة حديثة العهد نسبياً رقمها ٤٨٢٧، كتبها أحمد بن عبدالرزاق البيطار بقلم تعليق، وتتألف من خمس وأربعين ومائة ورقة من القطع الصغير (٢٢ × ١٥ سم). وهي بحالة جيدة، كتبت الأبيات المقتطفة من أرجوزة ابن الياسمين وعناوين الأبواب والفصول والمسائل بالحمرة، واحتوت الهوامش على بعض الشروح والتعليقات.

بداية المخطوط : «... إن علم الجبر والمقابلة من أجل العلوم... واشتهرت لحسن قصد صاحبها... الأرجوزة المعروفة بابن الياسمين... التمس مني بعض الأفاضل بشرح واف شامل...».

ونهايته : «... الخاتمة... إلى ماخصها من الثلث كان المجتمع مائة، وإذا ضم إلى وصية زيد وإلى مابقي للورثة كان المجتمع ثلاثمائة».

ويتألف المخطوط من مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة:

- المقدمة : في بيان معاني الألفاظ التي يتداولها أهل هذا الاصطلاح بينهم كالعدد، والشيء، والجذر، والمال، والكعب.
- الباب الأول : في بيان وجود التصرفات في المقادير المجهولة حيث هي مجهولة كضربها وقسمتها وتسميتها وجمعها وطرحها.
- الباب الثاني : في بيان المسائل الست التي ينتهي إليها الحاسب بالمعادلة إلى إحداها.
- الباب الثالث : في كيفية تناول المسألة، ومحاولتها إلى أن تخرج إحدى المسائل الست.

ومن المعروف أن هذا المخطوط شرح لـ«الأرجوزة الياسمينية» التي ألفها: عبدالله بن محمد بن حجاج الشهير بابن الياسمين (ت ٦٠١ هـ)[٢١]. وقد حظيت هذه الأرجوزة بشهرة واسعة بين الرياضيين العرب، فتناولوها بالشرح والتعليق، وكان أبرزهم:

- محمد بن محمد بن أحمد سبط المارديني: «التحفة الماردينية في شرح

الياسمينية»[٢٢].

- علي بن محمد بن علي القلصادي: «غنية الطالبين على جذور ابن الياسمين»[٢٣].

- شهاب الدين أحمد السجاعي: «فتح ذي الصفات السنية بشرح متن الياسمينية»[٢٤].

نسخ المخطوط :

- دار الكتب المصرية: ٤٣١٣/ ١ ك، ١ در، ١٨ مر، ١٩ مر.

- دار الكتب الوطنية / تونس: ٥٩٦.

- جامعة أم القرى: ١٤٠٥.

- طوب قابوسراي/ استانبول: ١٩٩٩- E.H٦٩٩٢، ٢٠٠٤- E.H ٦٩٩٤.

- كوبريلي / استانبول : ٩٤٧.

- الظاهرية / دمشق : ٣٠٨٤، ٩٢٥١. ■

الهوامش :

١ - انظر : بروكلمان، الذيل، ٢/ ١٢٥. وسارتون، المقدمة ٣/ ٢٤٣.
٢ - وفي «شذرات الذهب» ٧٥٣ هـ.
٣ - «الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل»، الحنبلي، ٢/ ١١٠، منشورات الشريف الرضي، ١٩٦٦.
٤ - «المدرسة الصلاحية» بباب الأسباط: وقف صلاح الدين الأيوبي في القدس سنة ٥٨٨ هـ.
٥ - «تراث العرب العلمي»، قدري طوقان، منشورات المقتطف، ص ٢٢٢، ١٩٤١.
٦ - راجع : الهدية ١/ ١٢٠. بروكلمان، الذيل ٢/ ١٢٥. سوتر، ١٥٢.
٧ - «المخطوطات العلمية في دار الكتب المصرية»، ديفيد كنج، ٢/ ٩١٥، القاهرة، ١٩٨٦.
٨ - المرجع السابق ، ٢/ ٩١٦.
٩ - المرجع السابق ، ٢/ ٩١٦.
١٠ - المرجع السابق ، ٢/ ٩١٤.
١١ - المرجع السابق ، ٢/ ٩١٠.
١٢ - المرجع السابق ، ٢/ ٩٠٩.
١٣ - المرجع السابق ، ٢/ ٩١١.
١٤ - بروكلمان ، ٢/ ٣٢٣، والذيل ٢/ ٤٤٥.
١٥ - كنج ٢/ ٩١٠ ، دار الكتب المصرية ١١٠٠ در.
١٦ - المرجع السابق ، ٢/ ٩١١.
١٧ - المرجع السابق ، ٢/ ٩١١.
١٨ - المرجع السابق ، ٢/ ٩١٢، وبروكلمان، الذيل ٢/ ٢٤١. ومخطوط دار الكتب المصرية ٣٩٥٣/ ك.
١٩ - كنج ٢/ ٩١٢ ، دار الكتب المصرية ٨١٧/ ١ در.
٢٠ - كنج ٢/ ٩٠٨ ، بروكلمان ٢/ ٢٢٠، دار الكتب المصرية ٢١٨ در.
٢١ - كشف الظنون ، ١/ ٦٢، كنج، ٢/ ٨٧٦.
٢٢ - كنج ٢/ ٨٧٨.
٢٣ - المرجع السابق ، ٢/ ٨٨١.
٢٤ - المرجع السابق ، ٢/ ٨٧٩.

تكريم النبوة في كتاب الشفا

د. حسن جلاب
عميد كلية اللغة العربية بمراكش

كل كتابة تبدأ من سؤال.. وربما لا تجد الجواب، ولكنها تحلل السؤال في اتجاه الجواب الذي قد يتحقق في النهاية. وكتاب «الشفا» لأبي الفضل عياض اكتنفته بعض المعتقدات والتحليلات التي استقرت في أذهان بعض الناس، حادت به عن الغاية التي أراد لها عياض أن تصل إلى أهل عصره وزمانه، ودفع حياته ثمناً لها..! وهذه المقالة بدأت من طرح هذا السؤال، فهل يتأتى لها الجواب..؟

القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي علم من أعلام المذهب المالكي بالمغرب، ولد بسبتة سنة ٤٧٦ هـ وتوفي بمراكش سنة ٥٤٤ هـ مسموماً. كان متنوع الثقافة، عميقها، اشتهر في كل الأقطار حتى قيل عنه: «لولا عياض لما ذكر المغرب» و«المغرب كله حرم لأبي الفضل».

خلف عياض مؤلفات عديدة وصلنا بعضها وضاع بعضها الآخر. وباستثناء كتاب «الغنية» الذي ذكر فيه شيوخه ومروياته، لاتخرج باقي المؤلفات عن موضوعي الحديث والفقه ورجاله.

- فمن الصنف الأول : الشفا، والإلماع، وبغية الرائد، ومشارق الأنوار، وإكمال

المعلم.

– ومن الصنف الثاني : ترتيب المدارك، والإعلام بحدود قواعد الإسلام، والتنبيهات المستنبطة على المدونة، ونوازله «أجوبة القرطبيين». ونسبت إليه مصنفات أخرى في التاريخ والنوازل لم يصلنا شيء منها.

ولقد لقي كتابه «الشفا بتعريف حقوق المصطفى»[١] صلى الله عليه وسلم من العناية والشهرة مالم تلقه باقي مؤلفاته. فحرص الناس على نسخه وقراءته وتدريسه وشرحه والتعليق عليه والتنويه بقدره ومستواه، في مختلف العصور. فقد نقل المقري عن عمه سعيد بن أحمد قوله: «ما ألف في الملة المحمدية مثل كتاب الشفا للقاضي عياض» [٢]. قال المقري: «وفضائل هذا الكتاب لاتستوفى»[٣]. لذا عدّه نفحة ربانية «لايمتري من سمع كلامه العذب السهل المنور في وصف النبي صلى الله عليه وسلم، ووصف إعجاز القرآن، أن تلك نفحات ربانية ومنحة صمدانية خص الله بها هذا الإمام وحلاه بدرها النظيم»[٤].

وعلى الرغم من أن عياضاً لم يكن هدفه جعل «الشفا» من قبيل الرقى والتعاويذ، فإن هذه الصفة قد ارتبطت به. لذا بالغ الناس في تقديره والاهتمام به، ونسج الأساطير والخرافات حوله. فقيل: «لايقع ضرر لمكان هو فيه، ولاتغرق سفينة تحمله، وأنه إذا قرأه مريض أو قرىء عليه شفاه الله. ومن ألمت به نائبة أو هول أو فزع فرج الله عليه بعد قراءته...[٥]. فحثوا على ضرورة توافر نسخة منه في كل خزانة.

ومما يدعو إلى العجب أن بعض شراحه أو المهتمين به أقروا بذلك وقرروه. فالشهاب الخفاجي يقول: «وأنا ممن جرب بركته، وشاهدها ولله الحمد»[٦]. وقال الحريشي في مقدمة شرحه له: «وقد جربت نكثه لدفع الأزمات، وكشف الكربات»[٧]. وأقر بذلك من المتأخرين الشيخ العدوي شارح الشفا، والفقيه المؤرخ عباس بن إبراهيم المراكشي[٨] وغيرهم كثير. إذ لانريد الإطالة في سرد هذه الشهادات.

وكان لهذه الاعتقادات أثر بالغ في الشعراء الذين مدحوا عياضاً وقرظوا كتابه، فقد ركزوا جميعاً على مسألة الاستشفاء بالكتاب. فكيف يمكن تفسير هذه الظاهرة؟ هل بعنوان كتاب الشفا؟ أم بموضوعاته «تكريم النبوة» ؟ أم بمنهجه المبتكر؟ أم بهذا كله؟

□ **أما العنوان، فالواضح أن عياضاً لم يكن يقصد به مدلول الدواء، وإبعاد المرض، وإنما كان يقصد دلالة البرهان والحجة.** فالرأي الشافي هو الرأي القاطع، الذي يشفي غليل الباحث عن الحقيقة. وقد سلك منهجاً نقلياً في كثير

من الأحيان، وعقلياً في قليل منها، للتعريف بالنبوة - في شخص محمد صلى الله عليه وسلم - وتكريمها.

ومع أنه لم يكن يقصد مفهوم الدواء فإنه ينتهي إليه، ذلك أن الحجج والبراهين على عصمة الأنبياء وحقوقهم وإعجاز القرآن تؤدي إلى مداواة النفوس المريضة بالجهل والشك، فتكتمل عافيتها بحب النبي صلى الله عليه وسلم وتوقيره. وإلى ذلك يشير عبيدالله بن أحمد الأزدي الرندي في تقييد له على نسخة للشفا «...وشفى بكتاب الشفا قلب كل مؤمن صادق، كما كبت به قلب كل عدو منافق، فإذا طالعه المؤمن استنارت في باطنه حقائق أنواره...»[٩].

■ وعند كثير من القدماء «إنما عظم الشفا في الصدور والعيون، لما اشتمل عليه من المدح المصون الذي استغرق أنفاس مؤلفه المشكور... فتداولته أيدي الفقهاء، وعظمته الصوفية بالتماس البركة بالمحبة، والشوق والارتياح...»[١٠].

■ وأسندت هذه العناية لما تميز به الكتاب من منهج مبتكر لوح إليه المؤلف نفسه في ختام كتابه: «وقد سفرت فيه عن نكت تستغرب وتستبدع، وكرعت في مشارب من التحقيق لم يورد لها -قبل- في أكثر التصانيف مشرع، وأودعته غير مافصل، وددت لو وجدت من بسط -قبلي- الكلام فيها»[١١].

ويزكي ابن فرحون عياضاً في فقرته بهذه الشهادة عندما قال عن الشفا: «أبدع فيه كل الإبداع، وسلم له أكفاؤه كفاءته فيه، ولم ينازعه أحد الانفراد به، ولم ينكروا مزية السبق إليه»[١٢]. إلا أن عياضاً لم يكن وحده المبتكر والمبتدع - إن كان في الكتاب ابتكار وابتداع - لمنهج متميز في التأليف. فما أكثر المحاولات في هذا الباب[١٣]. لكنها لم تحظ بمثل ماحظي به الشفا.

وبهذا تبقى دراسة الكتاب كفيلة بالكشف عن الدوافع التي جعلته يحظى بالقبول والعناية من طرف رجال الحديث والتصوف على السواء[١٤].

موضوع الكتاب والغرض من تأليفه :

والشفا ليس كتاب سيرة بالمفهوم المعروف والمتداول للسيرة، ذلك لأن عياضاً لم يهتم فيه بالخط الزمني المتبع في هذه الكتب مثل إرهاصات النبوة وعلاماتها، المولد ومعجزاته، الرضاع، الطفولة، البعثة... وإنما جمع فيه مقتطفات من عيون السيرة[١٥] بقصد تحقيق غايات محددة، أشار المؤلف إلى بعضها في مقدمة كتابه عندما قال: «حسب المتأمل أن يحقق أن كتابنا هذا لم نجمعه لمنكر لنبوة نبينا» صلى

الله عليه وسلم ولا لطاعن في معجزاته، فنحتاج إلى نصب البراهين عليها وتحصين حوزتها... بل ألفناه لأهل ملته الملبين لدعوته المصدقين لنبوته، ليكون تأكيداً على محبتهم له ومنماة لأعمالهم، ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم»[١٦].

لهذا أهمل الخط الزمني المتبع في كتب السيرة، وأقامه على بناء آخر من شأنه تأكيد هذه المحبة والسعي نحو تجلية أبعاد الكمال النبوي، وذلك في صيغة أقسام أربعة:

الأول: في تعظيم العلي الأعلى لقدر النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم قولاً وفعلاً (توجه الكلام فيه في أربعة أبواب. وتسعة وسبعين فصلاً).

الثاني: فيما يجب على الأنام من حقوقه صلى الله عليه وسلم (في أربعة أبواب وثمانية وعشرين فصلاً).

الثالث: فيما يجب للنبي صلى الله عليه وسلم. ومايستحيل في حقه، أو يجوز عليه، ومايمتنع أو يصح من الأحوال البشرية أن يضاف إليه (في بابين وخمسة وعشرين فصلاً).

الرابع: في تصرف وجوه الأحكام على من تنقصه أو سبه صلى الله عليه وسلم (في ثلاثة أبواب وخمسة وعشرين فصلاً).

واضح من هذه الأقسام أن الغرض من تأليف الكتاب تكريم النبوة والدعوة إلى توقيرها واحترامها، أو بعبارة المؤلف نفسه التعريف بحقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم. وكان اتجاهه أكثر وضوحاً وإلحاحاً خلال إشارته في الكتاب أن القسم الثالث منه يبحث «فيما يجب للنبي صلى الله عليه وسلم ومايستحيل في حقه...» هو سر الكتاب ولباب شهرة هذه الأبواب. وماقبله له كالقواعد والتمهيدات... وهو الحاكم على مابعده.

فما الداعي إلى نهج هذا السبيل؟ هل تمّ التطاول على مقام النبوة أو التنقيص من شأنها؟ أم أن المؤلف يسعى بكتابه إلى التذكير بهذه الحقوق والتعريف بها فقط؟

تقتضي الإجابة على هذا السؤال التعرف إلى التيارات العقدية التي عرفها عصر عياض وماقبله. ويمكن التذكير بها بإيجاز[١٧]. إن الصراعات المذهبية التي شهدها المشرق ابتداء من أواسط القرن الأول، وبداية القرن الثاني قد انعكست على المغرب، وانتقلت إليه في صفة الطوائف التي حلت به من خوارج وشيعة... أضيفت إليها فيما بعد مذاهب وديانات محلية منحرفة (برغواطة وغمارة). وزادت الصراعات الخارجية الموقف تأزماً وتعقيداً، مثل صراعات الفاطميين بإفريقية ومصر،

والأمويين بالأندلس، ومحاولاتهما التأثير في الأوضاع المذهبية بالبلاد.

هذه الصراعات المذهبية مزقت وحدة المجتمع المغربي وأفقدته التحامه، وفتحت أبواب التفكك والانقسام على مصراعيها. وبذل المرابطون مجهودات في سبيل توحيد البلاد مذهبياً، بإقرار المذهب المالكي ومحاربة عوامل التفرقة ومظاهرها، تجسد ذلك في مواجهتهم للفرق الضالة وغلاة المذاهب. ويمكن القول بأنهم وفقوا في ذلك إلى أبعد الحدود. إذ خفّت حدة هذه الصراعات المذهبية، وصار المغرب سنياً مالكياً. وبرز علماء أعلام دافعوا عن المذهب وعززوه بتآليفهم وفتاواهم، ومن أشهرهم القاضي عياض، أكبر الفقهاء والمؤلفين في عصره بالمغرب.

إلا أن الوضع لم يستمر طويلاً بهذه الحال، فقد حدثت تحولات جذرية كان لها تأثير على مستقبل المذهب، أهمها:

- ما لوحظ من تحجر في عقلية بعض الفقهاء، وميلهم إلى كتب الفروع والمدونات والتقوقع داخلها، معرضين عن سماحة المذهب وأصوله، ففقد الكثير من مؤيديه.

- ظهور داعية جديد هو محمد بن تومرت الملقب بالمهدي[١٨]، الذي نادى بمذهب التوحيد، فاستطاع بدهائه وعلمه أن يضع اللبنات الأولى لدولة جديدة، ومذهب جديد استقى عناصره من كثير من المذاهب والتيارات العقدية[١٩].

وقد حمل ابن تومرت على المرابطين ومذهبهم، ونعتهم بالتجسيد والكفر، لعدم تأويلهم للمتشابه، ونفيهم للصفات... وركز جهوده لتحقيق هدفين:

الأول: مواجهة المذهب المالكي المرابطي، وإظهار تناقضاته، فاعتمد في ذلك على عناصر منها ماسبق ذكره، كالقول بالتأويل والتوحيد، والأمر بالمعروف...

الثاني: تأسيس نظرية بديلة تكوّن خطاً مذهبياً لدولة جديدة. تقوم -إضافة إلى ما سبق- على القول بالمهدوية والعصمة والإمامة والجفر...

وطبيعي ألا يقبل فقهاء المالكية هذه الآراء سواء مايتعلق منها بالتأويل -ورأي مالك فيه مشهور ومعروف- أو مايتعلق بالتجرؤ على النبوة وادعاء مقام يضارعها في القول بعصمة الأشخاص ومهدويتهم، إذ لامعصوم إلا الأنبياء ولا مهدي إلا عيسى. وبهذا أدرجوا النبوة في نطاق الكمالات التي يمكن للبشر اكتسابها. ولعل هذه المسألة هي التي جعلت شيوخ المالكية يقفون في وجه أصحاب هذه الادعاءات. فقد سبق أن كتب القاضي عبدالجبار كتابه (تثبيت دلائل النبوة) في الدفاع عن مقام النبوة. وأسس نورالدين محمود زنكي أول دار للحديث في

دمشق ووضع لها منهجاً يركز المذهب السني ويعارض أهواء الشيعة وباقي الطوائف المتعارضة في المشرق. دون أن ننسى ماظهر بعد هذه المرحلة - خاصة في سبتة - من عناية بالمولد النبوي، تجسد في مؤلفات مثل (الدر المنظم في مولد النبي المعظم) لمحمد بن أحمد اللخمي العزفي السبتي[٢٠].

ووقف عياض في وجه أصحاب دولة الموحدين ونافحهم:

بقلمه : فكتب مؤلفه «الشفا» لإعادة الاعتبار للنبوة والدعوة إلى تكريمها، معرفاً بحقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم، والجزاء الواجب في حق المتجرئين عليها. فكانت فصوله الطويلة كما يلي: تعظيمه، وما يجب على الأنام في حقه وما يستحيل... وانفراد الأنبياء بالعصمة، إذ الخلاف قائم في عصمة الملائكة، وهذا يعني أن لا أساس لعصمة البشر. وجند المؤلف لذلك عدداً من نصوص الكتاب والسنة، واستعان بأساليب الجدال والمناظرة في القسم الثالث من الكتاب خاصة (القسم الأساسي). ومما يؤكد هذا أن عياضاً كان يكتب الشفا سنة خمسمائة واثنين وعشرين للهجرة[٢١] وهي السنة التي احتد فيها الصراع بين المرابطين والموحدين. وشهدت انتقال هؤلاء إلى مرحلة الهجوم والمواجهة.

وبسيفه : في قيادته لسكان سبتة وتزعمه الثورة على دولة الموحدين التي انتهت - بعد هزيمتين - بنفيه إلى مراكش كما نعلم.

ويبدو أن السر فيما لقيه الكتاب من تقدير وعناية من العلماء والمتعلمين في العالم الإسلامي كافة، راجع لا إلى مافيه من أحاديث وتعريف بحقوق النبي صلى الله عليه وسلم بالدرجة الأولى، ولكن إلى هذه المسائل بالذات:

أ) أفرزه موقف شجاع صمد فيه صاحبه إلى النهاية، ودفع حياته ثمناً له.

ب) تاريخيته : يعكس صراعاً سياسياً مذهبياً، كان له تأثير على الفكر والآداب في الغرب الإسلامي خلال قرون.

ج) وهو إسهام في تعميق اتجاه معين: السني المالكي، ودحض ماسواه، وهو الاتجاه السائد في كثير من مناطق العالم الإسلامي، والغرب الإسلامي خاصة. وهي المناطق التي أشادت به وناصرت صاحبه أكثر من غيرها.

د) في مناصرة الكتاب -المعظم للنبوة- والداعي بطريق غير مباشر إلى المذهب المذكور، حفاظاً على وحدة الأمة المذهبية والدينية وصيانة لها من التفرقة. ■

الهوامش :

(١) اهتم المغاربة بهذا الكتاب نسخاً وزخرفةً وكانوا يحتفظون به في مكتباتهم الخاصة، وطبع طبعات عديدة في معظم بلدان العالم الإسلامي.

(٢) أزهار الرياض ٤/ ٢٧١.

(٣) المرجع السابق ٤/ ٢٧١.

(٤) المرجع السابق ٤/ ٢٧٢.

(٥) شرح الشفا لمحمد بن عبدالسلام البناني ص١ مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم ٨١١ ج. الأعلام لعباس بن إبراهيم ٩/ ٣٤٤.

(٦) مقدمة شرح الشفا للبناني.

(٧) الفتح الفياض ص١ مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم ٥٧٨ق.

(٨) الأعلام ٩/ ٣٤٥.

(٩) أزهار الرياض ٤/ ٢٧٥.

(١٠) الأعلام ٩/ ٣٣٩.

(١١) الشفا ٢/٣١٢. ط. دار الفكر، بيروت، د. ت. (الطبعة المعتمدة).

(١٢) الديباج المذهب ص ١٧٠، ط. المعاهد بالقاهرة.

(١٣) عرض الأستاذ محمد المنوني بعض هذه الكتب في مقالته: طابع الحضارة المغربية في العصر الوسيط. مجلة كلية الآداب بالرباط عدد مزدوج ٣/ ٤، ١٩٧٨ ص ٨١- ٩٦.

(١٤) حكى غير واحد، منهم ابن جابر الوادي آشي أن عياضاً أوقف شيخه أبا بكر بن العربي على كتاب الشفا، فقال له: «بارك الله فيك ياأبا الفضل» واستحسنه جداً. «أزهار الرياض» ٤/ ٢٧٢.

(١٥) لهذا صنفه د. فاروق حمادة مع المصادر الفرعية للسيرة النبوية في كتابه مصادر السيرة النبوية وتقويمها، ط. دار الثقافة ١٩٨٠، ص ١٠٣- ١٠٤.

(١٦) الشفا ١/٢٤٦.

(١٧) لأستاذنا د. عباس الجراري دراسات عديدة في الموضوع منها:

- الأمير أبو الربيع سليمان الموحدي، ط. دار الثقافة ١٩٧٤.
- وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ، ط. دار الثقافة ١٩٧٦.
- وانظر كذلك كتابنا : الدولة الموحدية، ط. ١- ١٩٨٣، وط. ٢- ١٩٨٥. منشورات الجامعة.

(١٨) مؤسس الدولة الموحدية بالمغرب ٥٤١- ٦٥٦ هـ فقيه أصولي من أهم مؤلفاته: أعز مايطلب.

(١٩) انظر المراجع المذكورة.

(٢٠) م. خ. الاسكوريال رقم ١٧٤١.

(٢١) أشار عياض في كتابه إلى تاريخ التأليف بقوله: «والقرآن العزيز الباهرة آياته، الظاهرة معجزاته، على ماكان عليه اليوم مدة خمسمائة وثلاثين سنة لأول نزوله إلى وقتنا...» وبما أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يهاجر إلا في السنة الثالثة عشرة لمبعثه، وبداية نزول القرآن، فيكون تاريخ التأليف سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة.

علم المياه

واستنباطها في الحضارة الإسلامية

خالد عزب

اهتم العلماء المسلمون بالتأليف في علم استنباط المياه وما يتعلق به، لإدراكهم أهميته، وقد برزت مبتكراتهم وخبراتهم فيما صنّفوا من كتب. ونحن اليوم بحاجة ماسة إلى التعمق في دراسة خبراتهم من أجل استيعاب الطرق الفنية التي سلكوها في استخراج المياه، بهدف مقارنتها بعضها ببعض وإرساء قواعد الصلة بينها وتحليل نتائجها والاستفادة منها. ومن أبرز ما وصل إلينا منها المصنفات التالية:

١ - كتاب إنباط المياه الخافية[١]:

وضعه العالم الرياضي المهندس أبو بكر محمد بن الحسن الحاسب الكرخي المتوفى في القرن الخامس الهجري نحو سنة ٤١٠ هـ/ ١٠٢٠ م. وهو كتاب نفيس يعدّ موسوعة فنية في دراسة المياه الجوفية واستثمارها. وقد كان الكرخي ذا خبرة كبيرة في هذه الصناعة. يذكر في مقدمة كتابه أنه بعد أن تصفّح شيئاً من كتب المتقدمين في الموضوع وجدها قاصرة عن الكفاية واقعة دون الغاية، فبدأ في تصنيف كتابه هذا في إنباط المياه الخافية.

وعن مفهومه للدورة الهيدرولوجية للماء يذكر تحت عنوان صفة الأرض: «ومن حكمة الله أن خلق في الأرض مواضع كثيرة ذات جبال متصلة.. فإذا كان الزمان في هذه المواضع شتاء كثف الهواء، واشتد البرد، واستمال الهواء إلى الماء استمالة قوية، ووقعت عليها الثلوج لاتنقطع شتاءً ولا صيفاً، فإذا اشتد الحر بها بملامسة الشمس إياها ذابت وصار ذوبها مادة للعيون والأنهار والقنى والآبار، وجرت مياهها في عروق الأرض والخروق التي في بطنها فصارت مادة لمنابع في أمكنة بعيدة»[٢].

ثم يقول: «لما خلق الله الأرض والماء،

خلق لكل منهما مادة؛ فمادة الماء الساكن في بطنها، والعيون والأودية والأنهار والينابيع عليها من الأمطار والثلوج. فلو انقطعت قلت المياه، وأدى ذلك إلى خراب الأرض»(٣).

ويقول بعد ذلك: «وعلى هذا يجب أن تكون المياه من الثلوج والأمطار، ومن استمالة الماء إلى الهواء والهواء إلى الماء»(٤).

فهو هنا يشير إلى التبخر والتكاثف، ولعل بقية كلامه من الوضوح بحيث لايحتاج إلى تعليق.

ويصنّف أنواع المياه الأرضية تصنيفاً دقيقاً يثير العجب، ينطبق تماماً على مايعرفه الهيدرولوجيون اليوم فيقول: «الماء في بطن الأرض ثلاثة أنواع: ماء أصلي ساكن في جوفها لايزيد بزيادة الأمطار ولاينقص بنقصانها، ولايتغيّر حاله إلا شيئاً قليلاً، قد غمر جرم الأرض بحسب وجود الخلل، والمنافذ فيه لايتغير بشدة القيظ وأزمان الدهر.. ويكون هذا الماء قليل الحركة والجريان في بطن الأرض. وماتكون مادته استحالة الهواء إلى الماء في بطن الأرض دائماً، وهذا يدوم جريه مابقي السبب الذي به يستحيل الهواء إلى الماء، والثالث الماء الذي مادته من الثلوج والأمطار. وأكثر عمارة أهل الأرض به لأنه مادة الأودية العظام والعيون والقنى»(٥).

فهذه النصوص تدل دلالة قاطعة على وضوح فكرة الدورة الهيدرولوجية عند مؤلف الكتاب الذي عاش في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وهو عندما يسوق هذه المفاهيم لايسوقها ليبحث بحثاً نظرياً أكاديمياً يعارض فيها هذا المؤلف أو ذاك. إذ الغاية من كتابه غاية علمية يمهّد لها بمعطيات نظرية. وهو يعبرّ عن هذه الفكرة بوضوح فيقول: «ومن يتصوّر ماذكرته وحققته فقد عرف قطعة كبيرة من صناعة إنباط المياه، لأن تصوّر طبع الأرض والماء وكيفية وضعهما وخلقتهما وصفة حال الماء وخللها يدل على معرفة قوية في هذه الصناعة»(٦).

إنها معطيات نظرية تقود إلى إتقان صناعة علمية، صناعة إنباط المياه الجوفية التي تحيا بها الأرض وأهلها. وهو يدرك أهمية هذه الصناعة فيقول:

«وبعد فلست أعرف صناعة أعظم فائدة وأكثر منفعة من إنباط المياه الخفية التي بها عمارة الأرض وحياة أهلها»(٧).

٢ - كتاب البئر :

ألفه أبو عبدالله محمد بن زياد الأعرابي، ت ٢٣١ هـ/ ٨٤٥ م، وكتابه يعدّ من الرسائل التي كانت نواة للمعاجم العربية الكبيرة فيما بعد، وهو يضم مجموعة غير قليلة من الألفاظ التي توصف بها الآبار في حفرها، واستخراج المياه منها وقلة تلك المياه أو كثرتها وأجزاء البئر وأنواعها وأسماء كل نوع وأنواع المياه الخارجة منها وآلات استخراج المياه من الآبار(٨).

صفحة من مخطوط (عين الحياة في علم استنباط المياه) نسخة دار الكتب الوطنية في تونس ٤٥٤

٣ - كتاب عين الحياة في علم استنباط المياه:

يعدّ من المؤلفات المتأخرة في هذا العلم، وبالرغم من ذلك فلهذا الكتاب أهمية خاصة، سنبيّنها خلال تحليل مضمونه[٩].

مؤلف الكتاب : هو أبو العباس أحمد بن عبدالمنعم الدمنهوري. ولد بدمنهور[١٠] سنة ١١٠١ هـ/ ١٦٩٠ م، ونشأ يتيماً، لاوزر له.. وكان ذكياً فهماً، في نفسه طموح وعزم، وجد في اكتساب العلم والتحلي بحليته مايخرجه من واقع حاله البائس إلى مايطمح إليه من الرفعة والمجد. نزح إلى الأزهر صغيراً دون أن يكفله أحد، واجتهد في تحصيل العلم، واشتد ولعه بالفقه، واجتهد في التعرّف على المذاهب الفقهية الأربعة، وعني بعلوم الهندسة والمساحة والهيأة (الفلك) والميقات والحساب وصنع المزاول[١١]. وفي أواخر حياته ولي مشيخة الأزهر. ولم تطل مدته فيها، إذ توفي في شوال سنة ١١٩٢ هـ/ ١٧٧٨ م.

سبب تأليف الكتاب : التمس الشيخ يوسف بن محمد الزاغوني - وهو فقيه تونسي معروف - من أبي العباس الدمنهوري وضع هذا الكتاب، الأمر الذي يدعو إلى الاستغراب، إذ كيف يصدر ذلك عن فقيه مثله لاعلاقة له بعلم المياه؟

لكن الاستغراب ينجلي إذا علمنا صلة الرجل بأمير بلاده، وماكان يدركه من حاجاته ومطالبه في العمران. إنه الباي

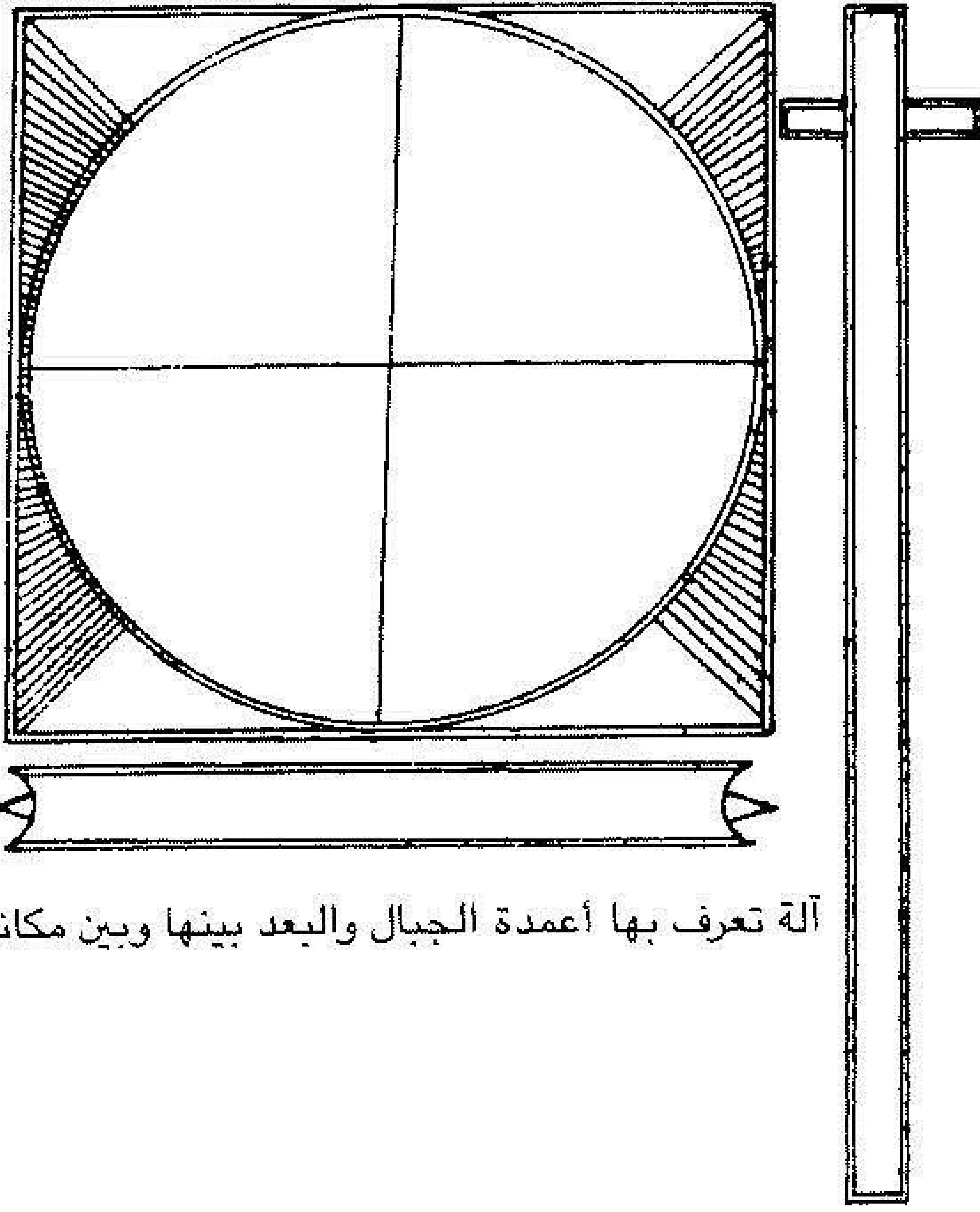
حسين بن علي تركي مؤسس الإمارة الحسينية بتونس، وإليه نسبتها وقد كان حفياً بالعمران، جاداً في نشره، وضع الماء في طليعة مُتطلباته، ولزمه أن يتوافر في الأرضين التي تخلو منه أو تشح، ولذلك دأب في طلبه، فأنشأ الفوارات والسقايات، وبنى المآجل والصهاريج، واستكثر من نشره، ومن هنا نشأ اهتمام الشيخ الزاغوني بالماء، وحرص على تعرّف طرق إنباطه، ووسائله ليستعين بها أمير بلاده في نشر العمران والخصب(١٢). والناس على دين ملوكهم.

محتويات الكتاب : يتألف كتاب الدمنهوري من: مقدمة، وبابين، وخاتمة. أما المقدمة فقد خصّها المؤلف بأشياء تتصل بطبيعة موضوع الماء، ففسر الاستنباط لغةً واصطلاحاً، وتكلّم عن العناصر الأربعة التي كان القدماء يظنون العالم مركباً منها وهي: الماء والهواء والنار والتراب، فشرح خواصها وتناولها بالتعليل، وأوضح نسبة بعضها إلى بعض، وذكر الرياح الأربع وحدوثها وصفاتها، وبينّ علاقتها بالمياه في تجفيفها أو زيادتها. وأما البابان، فأولهما في «تعريف المواضع التي فيها ماء، والتي ماؤها قريب، والتي ماؤها بعيد». ومايستدل به على ذلك من أمارات ذكرها المؤلف. وثانيها في «حفر الآبار، وطرائقه، ووسائل معالجته»، وقد أنهى هذا الباب بأقوال بعضها من الاعتقاد الباطل بالنجوم والقمر، ومايحكيه المنجمون، وبعضها الآخر من حكايات أهل الشعوذة.

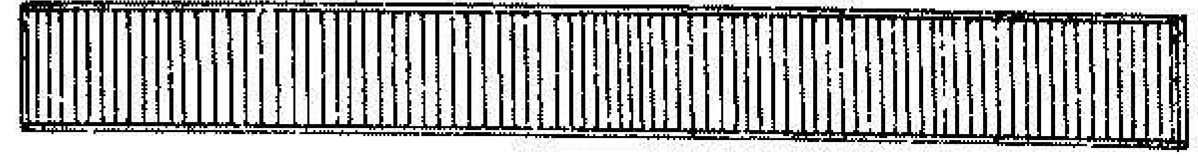
وكان الخليق بالمؤلف، حين شاء إيراد مثل هذه الحكايات، أن يفندها ويذكر بطلانها وسخفها، كما ينبغي لمثله بعلمه الواسع وعقله الحصيف أن يفعل(١٣). وهذان البابان هما لب موضوع الكتاب.

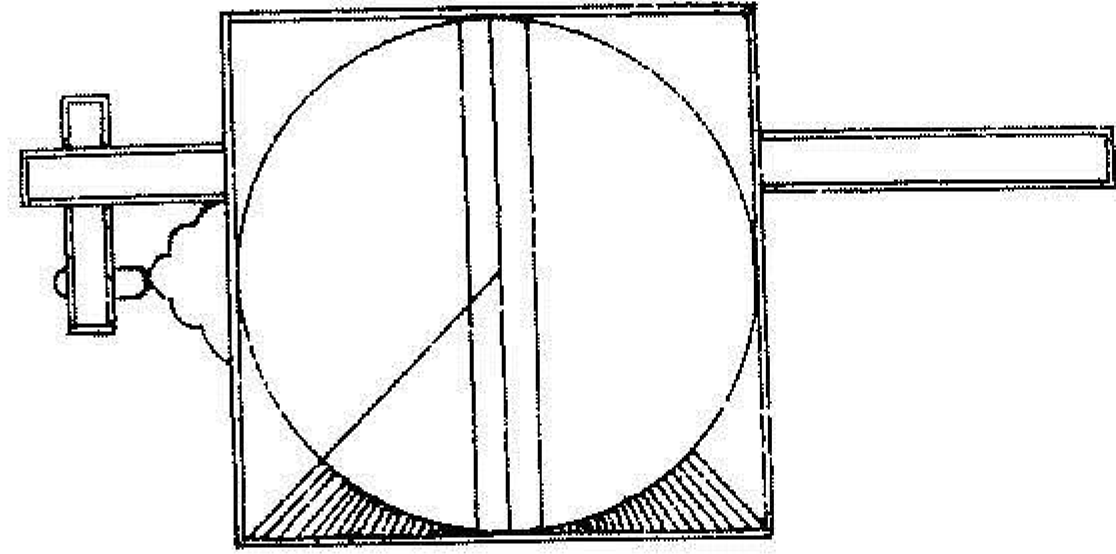
وأما الخاتمة فقد ضمنها ثلاثة مباحث: الأول في إيضاح ماتقدّم، مستمداً من كتاب «عجائب المخلوقات» وغيره، وهو مايتعلّق بالأرض وطباعها وطبقاتها، ومايحيط بها من الماء والهواء، وصفة الماء وأنواعه، والأبخرة.. والمبحث الثاني في بيان المعمور من الأرض، وطوله وعرضه، وقسمة الأقاليم إلى سبعة، وأثر الأقاليم في الأبدان والألوان والطبائع والأخلاق.. والمبحث الثالث عقده لبيان فضل العلم وأهله، فذكر بعض ماتواترت به الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة والآثار في فضله، والحث على تحصيله، وكأنه أراد بذلك أن يحفز همم الأمة على اكتسابه لتفيد منه في شؤون دنياها وآخرتها، فتعمر الأرض، وتنبط المياه، وتزرع ماتتقوت به، وتحصل على مايمدها من أسباب الحياة الهانئة، إذ الناموس المقرر في الحياة: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا».

وفي أثناء الكتاب وآخره، وضع المؤلف صوراً لمهاب الرياح، وكرة الأرض والأقاليم



آلة تعرف بها أعمدة الجبال والبعد بينها وبين مكانك





صورة الميزان والخشبة

● **من كتاب انباط المياه الخفية**

السبعة وغيرها.

ولاريب في أن جملة ماتضمنه هذا الكتاب في المقدمة والبابين والخاتمة، هو من العلم النافع الذي عُني به الفلكيون وعلماء الفلاحة، وتداولوه، وظل موضع نظر ودرس واعتبار، على مسار رحلة العلم من زمن إلى زمن آخر، ومن بلاد في الشرق إلى أخرى في الغرب، لاتحجزه حدود مغلقة، ولاتقيده قيود حابسة(١٤).

ومع أن الدمنهوري لم يأت بجديد في كتابه، إلا أنه امتاز ببراعته في تلخيص أصول استنباط المياه التي باتت اليوم في حكم المفقودة(١٥).

ويدل تأليف الكتاب في ذاك الزمن المتأخر - في جملة مايدل - على مبلغ تعلّق علماء الإسلام خلال العصور بعلوم الحياة، دقيقها وجليلها، وأنهم عكفوا عليها يدرسونها ويعلمونها، ويؤلفون فيها لايفترون.

٤ - وأحدث ماوضعه المسلمون في هذا المضمار كتاب الشيخ الرياضي الحاسب محمد بن حسين العطار المتوفى بدمشق سنة ١٢٤٣ هـ/ ١٨٢٧ م، سمّاه «علم المياه الجارية في مدينة دمشق»(١٦).

وهذا الكتاب وإن كان يتناول بالحديث مياه دمشق وطريقة توزيع ماء بردى فيها للشرب والري، وانقسامه إلى قنوات، وحصة

كل حي من أحياء المدينة، إلا أنه يتحدث كذلك عن أمور عديدة تتعلّق بعلم المياه عموماً، فهو يورد الأشياء التي يحتاج إليها الحاسب في عمله. ويتحدث عن بيع المياه. وغير ذلك مما يتعلق بتقسيم المياه وتوزيعها وبشكل دقيق جداً. وهذا عمل فريد من نوعه من جهة، ومهم لدى أصحاب الأراضي والسكان من جهة أخرى.

تلك كانت لمحة عن علم استنباط المياه في الحضارة الإسلامية قصدنا بها التعريف بهذا العلم وإبراز جهود ومؤلفات العلماء المسلمين فيه. ■

المراجع والهوامش :

(١) محمد بن الحاسب الكرخي، إنباط المياه الخافية - طبعة دائرة المعارف العثمانية ١٣٥٩ هـ.

وانظر : د. جلال الدين خانجي، مدخل إلى مفهوم الدورة الهيدرولوجية عند العرب المسلمين ص ٨٩، ص ٩١. أبحاث المؤتمر السنوي الثالث للجمعية السورية لتاريخ العلوم، نشر معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب، ١٩٨٠ م. الزركلي، الأعلام ٦/ ٨٣ ط٩.

(٢) إنباط المياه الخافية، ص ٥.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق ص ٩.

(٥) المرجع السابق ص ١٥ - ١٦.

(٦) المرجع السابق.

(٧) المرجع السابق.

(٨) أبو عبدالله بن زياد الأعرابي، كتاب البئر، تحقيق د. رمضان عبدالتواب، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠ م. وانظر: الزركلي، الأعلام ٦/ ١٣١ ط٩.

(٩) أحمد بن عبد المنعم الدمنهوري، عين الحياة في علم استنباط المياه، حققه وشرحه محمد بهجة الأثري، ص ١١، الأكاديمية المغربية للعلوم، ١٩٨٩ م. وانظر: الزركلي، الأعلام ١/ ١٦٤ ط٩.

(١٠) وهي تقع غرب دلتا النيل، وعاصمة إقليم البحيرة.

(١١) جمع مزولة، ساعة شمسية يعين بها الوقت بظلّ الشاخص الذي يبث عليها (المعجم الوسيط زول).

(١٢) عين الحياة.

(١٣) المرجع السابق.

(١٤) المرجع السابق.

(١٥) د. محمد عيسى صالحية، علم الريافة عند العرب، ص ٩. صدر ضمن نشرة دورية يصدرها كل من الجمعية الجغرافية الكويتية، قسم الجغرافيا بجامعة الكويت، (٣٧).

(١٦) محمد حسين العطار الدمشقي «علم المياه الجارية في مدينة دمشق» تحقيق أحمد غسان سبانو، نشر دار قتيبة - دمشق ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م. وانظر الزركلي، الأعلام ٦/ ١٠٤ ط٩.

ابن الجزار القيرواني

هو أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد ابن الجزار، وكنيته أبو جعفر، أحد أطباء تونس الرواد الذين اشتهروا في القرن الرابع الهجري [1].

عرفت أسرته باشتغالها بالطب، إذ كان والده إبراهيم بن أحمد بن أبي خالد وعمه أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي خالد من الأطباء الممارسين.

إعداد:

محمد حسن نوفلية

كانت القيروان إبان ولادة أحمد بن الجزار تتمتع بالنهضة الأدبية والعلمية التي بدأت في حكم الأغالبة حيث أنشأ إبراهيم الثاني الأغلبي[2] (٢٦١ - ٢٨٩ هـ) بيت الحكمة في مدينة الرقادة القريبة من القيروان لتكون عاصمة علمية لدولته إلى جانب القيروان العاصمة السياسية فجمع لبيت الحكمة هذا نفائس الكتب وآلات الرصد، وضم إليها أكابر العلماء والأطباء والمترجمين[3].

وكان من عادة الأغالبة أن يجددوا الولاء لخلافة بغداد مرة أو مرتين في كل عام، فكان إبراهيم الثاني يكلّف وفود الولاء إلى

بغداد أن يجمعوا له الكتب والنوادر وكانوا يغرون العلماء بالمال لينزحوا إلى تونس ويخدموا فيها بعلومهم وصنائعهم.

وكان من جملة من استقدمهم إبراهيم الأغلبي إسحاق بن عمران الطبيب البغدادي الذي يعد مؤسس مدرسة الطب في تلك البلاد بلا منازع، ومن تلاميذه اسحاق بن سليمان الإسرائيلي الذي قدم إلى تونس قاصداً إياه، وأبو بكر محمد بن أحمد ابن الجزار عم أحمد بن إبراهيم ابن الجزار وغيرهم.

ولد ابن الجزار في حدود عام ٢٨٥هـ في عهد الأمير إبراهيم الثاني وأخذ عن أبيه وعمه، وبرع في غير ماعلم ولاسيما في الطب والطبيعة والفلسفة والتاريخ. قال ابن جلجل في ترجمته: «وكان ممن لقي اسحاق بن سليمان الإسرائيلي وصحبه، وله في الطب تواليف عجيبة، وكان من أهل الحفظ والتطلع والدراسة للطب وسائر العلوم، وله تواليف في غير الطب، كتأليفه التواريخ، وتأليفه كتاب (الفصول والبلاغات)، وكان قد أخذ بنفسه مأخذاً عجيباً في سمته وهديه وقعوده، ولم تحفظ عليه بالقيروان زلة قط، ولا أخلد إلى لذة. وكان يشهد الجنائز والعرائس ولا يأكل فيها، ولم يركب إلى أحد من رجال أفريقية ولا إلى سلطانها، إلا أبي طالب عم معد، كان له صديقاً قديماً، وكان يركب إليه كل جمعة لاغير.

وكان ينهض في كل عام إلى المنستير - رابطة على البحر[٤] - فيكون هنالك طول أيام القيظ، ثم ينصرف إلى أفريقية، وكان قد وضع على باب داره سقيفة أقعد فيها غلاماً له يسمى برشيق، أعد بين يديه جميع المعجونات والأشربة والأدوية، فإذا رأى القوارير بالغداة، أمر بالجواز إلى الغلام وأَخْذ الأدوية منه، نزاهة بنفسه أن يأخذ من أَحد شيئاً»[٥].

كان ابن الجزار ثرياً موسراً يكتظ المتداوون في محل عيادته، وكان بعد فحصهم يحيلهم لغلامه رشيق الذي يوزع عليهم الأدوية، كما كان يعامل وجوه الدولة بمثل معاملته لعامة الناس، وليس أدل على ذلك من تلك القصة التي يرويها ابن جلجل في طبقاته فيقول:

«حدثني عنه من أثق به فقال: كنت عند ابن الجزار في دهليزه وقد غص بالناس إذ أقبل ابن أخي القاضي النعمان وكان حدثاً جليلاً بأفريقية، يستخلفه القاضي إذا منعه مانع عن الحكم، فلم يجد في الدهليز موضعاً يجلس فيه، إلا مجلس أبي جعفر، فخرج أبو جعفر، فقام له ابن أخي القاضي على قدم، فما أقعده ولا أنزله، وأراه قارورة بماء كانت معه، لابن عمه ولد النعمان، واستوفى جوابه عليها وهو واقف، ثم ركب ونهض وماكدح ذلك في نفسه، وجعل يتكرر عليه بالماء في كل يوم حتى برأ العليل.

قال الذي حدثني : فكنت عنده ضحوة نهار، إذ أقبل رسول النعمان القاضي، بكتاب

يشكره فيه على ماتولى من علاج ابنه، ومعه منديل بكسوة وثلاثمائة مثقال، فقرأ الكتاب وجاوب شاكراً ولم يقبض المال ولا الكسوة، فقلت له: أبا جعفر رزق ساقه الله إليك، ترده؟ فقال لي: والله لاكان لأحد من رجال دولة معد قبلي نعمه»[٦].

قال عنه القاضي صاعد الأندلسي في طبقات الأمم: «وكان مع هذا حسن المذهب، فاضل السيرة، صائناً لنفسه، معتصماً عن الملوك ذا وفرة وثروة» [٧].

وقال ياقوت في معجم الأدباء: «كان منقبضاً عن الملوك، ذا ثروة، ولم يكن يقصد أحداً إلى بيته، وكان له معروف وأدوية يفرقها على الفقراء»[٨].

ولو تتبعنا مانقله القاضي عياض في ترتيب المدارك عن ابن الجزار لوجدنا فيه العالم المؤرخ الذي يحفظ لأهل العلم منزلتهم ومكانتهم، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على فضل ابن الجزار وحكمته. فمن ذلك قوله عن محمد بن سحنون: «كان ابن سحنون إمام عصره في مذهب أهل المدينة بالمغرب، جامعاً لخلال قلما اجتمعت في غيره من الفقه البارع والعلم بالأثر والجدل والحديث والذب عن مذهب أهل الحجاز...».

والواضح من ترجمات ابن الجزار الكثيرة التي ذكرها علماء هذا الفن - ولعل أول من أطال في التعريف به هو ابن جلجل - أن ابن الجزار تلقى معظم علومه في تونس وأنه همّ في وقت ما بالرحلة إلى الأندلس، ولكنه لم ينفذ ذلك.

وقد وقع في تاريخ وفاة ابن الجزار اختلاف كبير فقال ياقوت(٨) «إنه كان في أيام المعز لدين الله في حدود سنة ٣٥٠ هـ»، وقال الذهبي: «ويجوز أن يكون توفي قبل الخمسين وثلاثمائة»[٩].

وقال ابن العذاري إن وفاته كانت سنة ٣٦٩ هـ[١٠]، وبه أخذ فؤاد سزكين[١١] ورجّحه حسن حسني عبدالوهاب[١٢] وإبراهيم بن مراد[١٣] والحبيب الهيلة[١٤]. واضطربت أقوال حاجي خليفة فقال مرة إنه توفي سنة ٣٩٥ هـ، وقال في أخرى سنة ٤٠٠ هـ، وقال غير ذلك[١٥].

ولعل قول ابن عذاري هو الأقرب للصواب[١٦].

تلاميذ ابن الجزار :

لم تذكر المصادر من تلاميذه إلا عمر بن بريق أبا حفص الذي رحل إليه من الأندلس، وأخذ عنه وهو الذي أدخل إلى الأندلس كتابه «زاد المسافر».

علم ابن الجزار وآثاره :

كان ابن الجزار ذا ثقافة موسوعية شاملة، يدل على ذلك ماتركه من مؤلفات تزيد على الأربعين في الطب والتاريخ والأدب والفلسفة، وقد غلبت عليه معرفته في الطب والصيدلة على ماعداها فاشتهر بها وذاع صيته فيها.

وقد تتبع كثير من المستشرقين[١٧]

وغيرهم مثل سزكين[18] وحسن حسني عبدالوهاب ومحمد الحبيب الهيلة وإبراهيم بن مراد مؤلفات ابن الجزار وذكر كل واحد منهم قائمة كتب له لم يتفق فيها مع الآخرين كل الاتفاق. وفيما يلي كتبه التي ذكروها مشفوعة بما قيل فيها.

آثار ابن الجزار :

آ ـ الكتب التي وصلت إلينا:

١ ـ أبدال الأدوية.

ذكره ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء ص ٤٨٢، وذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ٨٤١ والبغدادي في الهدية ١/ ٧٠، وأورده بروكلمان بلفظ «أعدال العقاقير» ٤/ ٢٩٩، وذكره سزكين بلفظ «أبدال العقاقير» و«بدل العقاقير» ٣/ ٣٠٦. منه نسخة في الأسكوريال ٨٩٦/ ٥، ونسخة في دار الكتب المصرية (خيري) ٥٦٣٦. ومنه نسخة مصورة عن النسخة المصرية في مكتبة حسن حسني عبدالوهاب، ورقات ٣١٦/١.

٢ ـ الاعتماد في الأدوية المفردة.

ذكره صاعد الأندلسي في طبقات الأمم ص١٥٤ وابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء ص ٤٨٢، وياقوت في معجمه ٢/ ١٣٦، والذهبي في السير ١٥/ ٥٦١ بلفظ «الأدوية المفردة» وفي تاريخ الإسلام ص٢٤١، وذكره حاجي خليفة في الكشف ١٢٠، والبغدادي في الهدية ١/ ٧٠. وقد ذكر محمد الحبيب الهيلة في مقدمة سياسة الصبيان[19] أن الصفدي ذكره في الوافي[20] نقلاً عن (مخطوط الزيتونية العبدلية رقم ٤٨٤٤ الورقة ٢٢٣ ب) غير أني لم أجد ذكراً للكتاب في ترجمة ابن الجزار عند الصفدي في النسخة المطبوعة، وذكره بروكلمان ٤/ ٢٩٧ وسزكين ٣/ ٣٠٤.

منه نسخة في أياصوفيا ٣٥٦٤ ونسخة فلورنسا – لورنز٣٧٤/ ٢٥٦ ونسخة في برلين ٣٨٣٢/ ٤ ونسخة في الرباط ١١٢١، وأخرى ٤٨٧٤ ، ونسخة في بيروت ٣٣٥/ ٥

وورد في فهرس الظاهرية «طبايع العقاقير على مذهب ابن الجزار في كتاب الاعتماد – المقالة الرابعة».

الرقم العام ٣١٥٧ هـ قال صلاح الخيمي معد الفهرس المؤلف مجهول، وذكر ذلك سزكين وبروكلمان إلا أن سزكين في مقدمة إصداره للكتاب نفسه صحح ذلك، وعد القطعة الموجودة في الظاهرية من الكتاب نفسه، وقد نشره تصويراً لنسخة أياصوفيا، وذكر في المقدمة أن معظم النسخ الأخرى المتوفرة للكتاب ناقصة، وأن الكتاب ترجم إلى الإغريقية واللاتينية والعبرية.

وذكر بروكلمان ٤/ ٢٩٧ أنه ترجم إلى

العبرية نقلاً عن: شتاين شنايدر ٤٤٨.

وقد عرّف الأستاذ إبراهيم بن مراد بالكتاب فقال:

«ألّف ابن الجزار كتاب الاعتماد في زمن الخليفة الفاطمي القائم بن المهدي، الذي أهداه إليه، فتكون فترة تأليفه إذن بين سنتي ٣٢٢ - ٣٣٤ هـ، أي أن عمر ابن الجزار عندما ألف هذا الكتاب كان حوالي الأربعين سنة.

قسم ابن الجزار كتابه إلى أربع مقالات، ولم يتبع في تأليفه الطريقة المعجمية المألوفة التي تقوم أساساً على الترتيب الهجائي للمفردات، بل نهج طريقة تعتبر في عصره مستحدثة بحق، وهي ترتيب الأدوية حسب درجة قوتها وهي أربع: الأولى والثانية والثالثة والرابعة. لذلك كان كتابه في أربع مقالات. وهذا الترتيب يدل - بلا شك - على مدى إدراك ابن الجزار قوة تأثير الأدوية ومعرفته بمختلف خصائصها».

٣- البغية في الأدوية المركبة.

ذكره صاعد الأندلسي في طبقات الأمم ص ١٥٤، وابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء ص ٤٨٢، والذهبي في التاريخ ٢٤١، وياقوت في معجمه ٢/ ١٣٦، وحاجي خليفة في الكشف ٢٥١، والبغدادي في الهدية ١/ ٧٠ وسزكين ٣/ ٣٠٦، وذكر نسخة في حلب برقم ٦١٨ في مكتبة بولس سباط(٢١).

٤- «الخواص» رسالة.

ذكره ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء ص٤٨٢، وحاجي خليفة في سلم الوصول[٢٢]، والبغدادي في الهدية ١/ ٧٠، وبروكلمان ٤/ ٢٩٨، وسزكين ٣/ ٣٠٦. وذكرا نسخة ترجمته إلى العبرية نقلاً عن شتاين شنايدر رقم ٤٥٢، ومنه نسخة في الجامع الكبير في صنعاء رقم ٢٠/ طب.

٥- زاد المسافر وقوت الحاضر.

وهو أهم كتاب من الكتب المتوفرة لابن الجزار.

ذكره صاعد الأندلسي في طبقات الأمم ص ١٥٤، وابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء ص ٤٨٢، وياقوت في معجمه ٢/ ١٣٦، والذهبي في السير ١٥/ ٥٦١، والتاريخ ص ٢٤١ بعنوان «زاد المسافر في علاج الأمراض»، والصفدي في الوافي ٦/ ٢٠٨، وحاجي خليفة في الكشف ٩٤٦، والبغدادي في الهدية ١/ ٧٠، وبروكلمان ٤/ ٢٩٦، وسزكين ٣/ ٣٠٥.

منه نسخ متعددة : في مكتبة أزمير ميللي ٥٠/ ٤٧٠ (٢٦٦٣٦)، وفي مكتبة دريسدن في ألمانيا رقم ٢٠٩، وفي المكتبة الوطنية بباريس ٢٨٨٤، وبالخزانة العامة بالرباط ١٧١٨، وبودليانا «انجلترا» رقم ٣٠٢ وبالجزائر رقم ١٧٤٦ وبكليفلاند رقم ١/٩٢ (طب) وبدار الكتب (طب، م٤ - ٣٧) وبكوبنهاجن رقم ١٠٩ ونسخة أخرى

بالخزانة الملكية Arab cix وتشستربيتي رقم ٥٢٢٤ وبيروت - سامي حداد - ١٥ وبالخديوية ن ع/ ٧٦٩٦ وبحضرموت ١١٥٨ وبالمكتبة الشعبية بالمكلا[٢٢] وبتركيا كمانكش ٣٥٣ وبهافيتا ١٠٩ وميتديشي ٢٥٦ ورامبور ٤٨١/ ١٠٤ وبالجامعة الأمريكية ببيروت طب/ ٦٣١ ودار الكتب ٤٣٠٨/ ل

ترجم الكتاب منذ أول عهده إلى اللاتينية والعبرية وفي مكتبات العالم نسخ متعددة عن هذه الترجمات. وأخيراً فقد نشره الأستاذان محمد سويسي والراضي الجازي سنة ١٩٨٦ في بيت الحكمة بتونس (سلسلة إحياء التراث العلمي ٢).

أما عن التعريف بالكتاب فقد طارت شهرته كثيراً منذ أول عهده قبل وفاة مؤلفه، فقد امتدحه الشاعر المشرقي كشاجم المتوفى سنة ٣٦٠ هـ في أبيات فقال:

أبا جعفر أبقيت حياً وميتاً
مفاخر في ظهر الزمان عظاماً
رأيت على «زاد المسافر» عندنا
من الناظرين العارفين زحاماً
فأيقنت أن لو كان حياً لوقته
يوحنا لما سمى «التمام» تماماً
سأحمد أفعالاً لأحمد لم تزل
مواقعها عند الكرام كراما[٢٣]

أما عن الطريقة التي اتبعها ابن الجزار في تصنيف هذا الكتاب فهي طريقة مغايرة لطريقته في كتاب الاعتماد التي سبق الحديث عنها، فهو يقسم الكتاب إلى سبع مقالات مقسمة بدورها إلى أبواب حسب أمراض الجسم. يقول ابن الجزار في مقدمة كتابه: «وسلكت في ذلك عند تأليفه وجمعه مسلكاً بيناً مختصراً واضحاً مشروحاً مفسراً، لينظر فيه الراغب، ويقتصر عليه الطالب، ويكون تذكرة للعالم الحاضر، وزاداً للمسافر إلى البلدان البعيدة التي لايوجد فيها طبيب، أطال الله بقاءك.

لامزيداً على مايحتاج إلى علمه من صناعة الطب فتنساه، ولايقصر عن مرادك فتلجأ إلى ماسواه، وذلك أني ذكرت في كل باب منه (ماهية) العلة التي يقصد إلى ذكرها ومداواتها، وأثبت حدها المبين عن طبيعتها، والسبب الفاعل لها، والبرهان الدال عليها».

وربما كان من المناسب أن أذكر بعض ماقاله أهل هذه الصناعة عن هذا الكتاب.

يقول الدكتور عبدالكريم شحادة الأستاذ بكلية الطب في جامعة حلب: «إن زاد المسافر موسوعة طبية مختصرة شاملة، كتبت بأسلوب سهل شيق، واحتوت على كل مايحتاج إليه الطبيب، وطالب الطب، فضلاً عمن ليس بطبيب، مسافراً كان أو مقيماً، وهؤلاء كلهم يجدون في هذا الكتاب الجامع، بيسر وسهولة، وبلغة مبسطة، معلومات مختصرة، ولكنها كافية لتذكيرهم سريعاً بأعراض الأمراض التي يودون الاطلاع عليها، وعلى أسبابها وعلاماتها وتشخيصها،

وتفريقها عما ينشأ بها من الأمراض، كما تطلعهم على طرائق معالجتها والأدوية النافعة فيها، فهي والحالة هذه تشبه الكتب الطبية الحديثة المختصرة التي يطلق عليها «مسعفات الذاكرة»[٢٤].

٦ـ سياسة الصبيان وتدبيرهم.

لم تذكره المصادر القديمة ويوجد منه نسخة في البندقية ضمن مجموع برقم (ms. or. 157) وفي الأسكوريال (موراتا - أندلس) ١١٠/ ١٩٣٤/ ٢ ونسخة في الخزانة الملكية (نانيانا ٢/ ٢٤٠) ونسخة بالمكتبة الملكية بالرباط مجموع رقم ١٠٤٤، وقد حققه الأستاذ محمد حبيب الهيلة ونشره بتونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٦٨، وأعاد نشره في بيروت: دار الغرب الإسلامي ١٩٨٤

ورد في مقدمته

«قال أبو جعفر أحمد بن إبراهيم ابن أبي خالد : إن معرفة سياسة الصبيان وتدبيرهم ، باب عظيم الخطر جليل القدر ، ولم أر لأحد من الأوائل المتقدمين المرضيين في ذلك كتابا شافيا، بل رأيت ما يحتاج من علمه ومعرفته من ذلك متفرقا في كتب شتى، وأماكن متفرقة، مما جعل بعض الناس قد عرف بعضه ، وجهل بعضه، ولعل بعضهم قد عرف ذلك كله، ولم يعرفه من أسهل طرقه، وأقصر سبله، وأقرب مآخذه، فلما كان الأمر في ذلك على ما وصفنا، رأيت أن أجمع المتفرق من ذلك في الكتب الكثيرة، وألفت بعضه في هذا الكتاب، كالذي يؤلف من الجوهر إكليلا بهيا .

٧ـ طب الفقراء.

ذكره ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء ص ٤٨٢، والذهبي في السير ١٥/ ٥٦٢ والتاريخ ص ٢٤١، وحاجي خليفة في الكشف ١٠٩٥، والبغدادي في الهدية ١/ ٧٠، وبروكلمان بعنوان طب الفقراء والمساكين ٤/ ٢٩٧، وسزكين ٣/ ٣٠٦ بعنوان «طب الفقراء والمساكين» أيضاً.

ومنه نسخة في الأسكوريال رقم ٨٥٧/ ٢ ونسخة أخرى برقم ٨٥٢/ ١ وبباريس المكتبة الوطنية رقم ٣٠٣٨، وبغوته رقم ٢٠٣٤، وببورصة ١١٢٦/ ١ وبكامبردج Or/021/12 وببغداد (المتحف) ٢١٠٢، وبالرباط (كتاني) ٩٣٨، وبالخزانة الصبيحية ٢٢٢/ ٤ وببيروت (سامي حداد) ١٦، وتركيا (خراجي أوغلي) ١١٢٦/ ١.

ذكر بروكلمان أن الكتاب ترجم إلى العبرية نقلاً عن شتاين شنايدر ٤٥١.

وقد حققه وطبعه الأستاذ سليمان قطاية وظهر في طبعة فاخرة بباريس (دون تاريخ).

ذكر في مقدمته أنه ألف كتابا في علاج أمراض البدن سماه زاد المسافر، ولما رأى أن كثيرا من أهل الفقر والمسكنة يعجزون

عن أن ينالوا منافع ذلك الكتاب وغيره من سائر الكتب التي ألفها، جمع لهم في هذا المختصر ما يتيسر لهم تحصيله من تلك الأدوية[٢٥]».

٨ - طب المشائخ وحفظ صحتهم.

كتاب عالج فيه الحالات التي تعتري المسنين والمعمرين ومايجب عليهم اتباعه للمحافظة على العافية واستدامة الصحة. ولم يذكره أحد ممن ترجم لابن الجزار من القدماء. ويوجد منه نسخة في دار الكتب (خيري) ١٠٨/ ١٥٨، ونسخة أخرى مصورة عنها برقم ٥٦٣٦/ ل طب. كتب عنه الدكتور إسماعيل بودربة أطروحته التي قدمها لجامعة الجزائر سنة ١٩٥٢ بعنوان

Contribution a l'étude de la médecine arabe en Tunisie au Xe siecle a travers "Tibb, al masayih" d'Ibn Al-Gazzar.[٢٦]

٩ - العدة لطول المدة.

ذكره ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء ص ٤٨٢ والذهبي في تاريخ الإسلام ص ٢٤١ وحاجي خليفة في كشف الظنون بعنوان «العمدة لطول المدة» ص ١١٧١، والبغدادي في الهدية ١/ ٧٠ بعنوان «العمدة لطول المدة».

منه نسخة في المكتبة الخاصة لمايرهوف برقم(٢٠/ ١٩٢٨/ ٧٥).

١٠ - علاج السعال وإزالة حصى الكلى والمثانة وعلاج مرض الطحال.

ذكره بروكلمان ٤/ ٢٩٨، منه نسخة في بودليانا ١/ ٥٧٩: ٢.

١١ - الفرق بين العلل التي تشتبه أسبابها وتختلف أعراضها.

ذكره ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء ص ٤٨٢، وحاجي خليفة في الكشف ١٢٥٦، والبغدادي في الهدية ١/ ٧٠. منه نسخة في مكتبة الأوقاف ببغداد (١/ ٦٠٢/ مجاميع). وقد حقق الأستاذ سلمان قطاية كتاب «مالفارق أو الفروق أو كلام في الفروق بين الأمراض».

ونشره معهد التراث العلمي بحلب سنة ١٩٧٨، ونسبه إلى أبي بكر الرازي ثم أعادت تحقيق الكتاب رمزية محمد الأطرقجي، ونشرته بعنوان: «الفرق بين الاشتباهات في العلل». نشر مركز إحياء التراث العلمي العربي ببغداد، ١٩٨٤، ونسبته إلى ابن الجزار[٢٧].

١٢ - فنون الطيب والعطر.

ذكره ابن الجزار في طب المشائخ، وذكره حسن حسني عبدالوهاب بعنوان «العطر» وقال: يظهر أنه خصصه لصناعة الروائح

العطرية، وطرائق تقطيرها من النباتات والعقاقير التي يستخرج منها.

وذكر بروكلمان ٤/ ٢٩٨ كتاب «بديل العطور» وأن له نسخة في الإسكوريال برقم أول ٨٩١: ٤، ومنه نسخ أخرى في تركيا (إسماعيل صائب) ٥١٤٣ وتركيا (وهبي) ١٤٨١.

١٣ـ كتاب المعدة وأمراضها ومداواتها.

ذكره مؤلفه في طب المشايخ، وابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء ص ٤٨٢، والبغدادي في الهدية ١/ ٧٠، وبروكلمان ٤/ ٢٩٨، وسزكين ٣/ ٣٠٦.

منه نسخة في الأسكوريال ثان ٨٥٢: ٤، والظاهرية ٣١٦٦، وبالمتحف العراقي رقم ٢١٠٣ ورد فيها العنوان «طب المعدة».

حققه الأستاذ سلمان قطاية ونشره في بغداد: دار الرشيد، ١٩٨٠.[٢٨]

١٤ـ المعتمد في الأدوية المفردة.

ذكره الأستاذ الهيلة في مقدمة سياسة الصبيان وقال: منه نسخة في برلين ضمن المجموع رقم ٦٤٢٦، ويبدو أنه غير كتاب الاعتماد السابق الذكر. فقد كتب في نهايته: انتهى المقصود من كتاب المعتمد المختصر من كتاب الجامع لقوى الأغذية والأدوية.

وقد نقد هذا الكلام ابن مراد فقال: «وبالنظر في وصف هذا المخطوط في الفهرس المذكور تبين لنا أن عنوان الكتاب صحيح هو «المعتمد في مفردات الطب». وهو للطبيب المعروف السلطان الملك يوسف بن عمر بن علي بن رسول النسائي ت٦٩٥ هـ. وقد اختصر فيه المؤلف بعض المؤلفات الطبية. ذكرها في المقدمة كالجامع لابن البيطار والمنهاج لابن جزلة وتقويم الأدوية للتفليسي والإبدال لابن الجزار»[٢٩].

ب ـ الكتب التي لم تصل إلينا :

■ «الأحجار» الكريمة ومنافعها ومعادنها وخواصها.

ذكره التيفاشي القفصي في تصنيفه أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، ومن جملة مانقل عنه العبارة التالية:

قال أحمد بن خالد المعروف بابن الجزار في كتابه في الأحجار:

«عالجت أنا وصيفاً الخادم (الفاطمي) صاحب المظلة من حصاة عظيمة كانت به...»[٣٠].

١ـ أسباب وباء مصر، والحيلة في دفعه.

ذكره ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء ص ٤٨٢، والذهبي في السير ١٥/ ٥٦١ والتاريخ ص ٢٤١ بعنوان «الأسباب المولدة للوباء في مصر بطريق الحيلة في دفع ذلك. والبغدادي في هدية العارفين بعنوان «نعت الأسباب المولدة للوباء».

وقد ألف علي بن رضوان [٣١] ت٤٥٣هـ كتابا عنوانه «كتاب في دفع مضار الأبدان

عن أرض مصر» خصص الفصل الخامس منه للرد على ابن الجزار في كتابه هذا فقال: فصل في أن أكثر ما أعطاه ابن الجزار في الباب الأول من كتابه أن العلة في مرض الذين وفدوا من المغرب إلى مصر هو شدة اختلاف هواء مصر»[٣٢].

٢ـ أسباب الوفاة.

ذكره حاجي خليفة في سلم الوصول[٣٣].

٣ـ الاستهانة بالموت.

ذكره ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء ص ٤٨٢، والصفدي في الوافي ٦/ ٢٠٨ بعنوان«رسالة في استهانة الموت»، والبغدادي في الهدية ١/ ٧٠.

٤ـ أصول الطب.

ذكره الذهبي في تاريخ الإسلام ص ٢٤١ بعنوان «الوصول إلى الأصول» وهو كتاب «المدخل إلى الطب». وذكره المؤلف في طب المشائخ[٣٤].

٥ـ «البلغة» في حفظ الصحة.

ذكره ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء ص ٤٨٢، وحاجي خليفة في الكشف ٢٥٣، والبغدادي في الهدية ١/ ٧٠.

٦ـ التعريف بصحيح التاريخ.

ذكره صاعد في طبقات الأمم ص ١٥٤، وابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء ص ٤٨٢، وياقوت في معجمه ٢/ ١٣٦، وقد رآه ياقوت في عشر مجلدات، والصفدي في الوافي ٦/ ٢٠٨، ونقل عنه المالكي[٣٥] في رياض النفوس، والقفطي في إنباه الرواة ٢/ ١٧٣. كما نقل عنه ابن خلكان في وفيات الأعيان[٣٦] في ترجمة أشهب تلميذ مالك والقزاز محمد بن جعفر التميمي النحوي المعروف. وترجمة أبو عبيد القاسم بن سلام، ونقل عنه القاضي عياض في المدارك[٣٧]، وذكره حاجي خليفة في الكشف ٤٢٠، والبغدادي في الهدية ١/ ٧٠، وبروكلمان ٤/ ٢٩٨.

وهو كتاب يشتمل على وفيات علماء زمانه وقطعة من أخبارهم. وسار فيه على طريقة التاريخ بالحوليات ذاكراً الحوادث على نظام السنين[٣٨].

٧ـ «الجذام» وأسبابه وعلاجه.

ذكره ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء ص ٤٨٢، والصفدي في الوافي ٦/ ٢٠٨، وحاجي خليفة في الكشف ٨٥٧ بعنوان «رسالة في الجذام». والبغدادي في الهدية١/ ٧٠.

٨ـ «الحمامات» منافعها ومضارها.

ذكره ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء ٤٨٢، وحاجي خليفة في سلم الوصول[٣٩].

٩ـ «الخواص».

ذكره ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء ٤٨٢، والبغدادي في الهدية ١/ ٧٠، وبروكلمان ٤/ ٢٩٨، وذكر ترجمته للاتينية نقلاً عن شتاين شنايدر ٤٥٢ وترجم إلى العبرية أيضا[٤٠].

١٠ـ دولة المهدي وظهوره بالمغرب.

ذكره في عيون الأنباء ٤٨٢، وياقوت في معجم البلدان في مادة (طنبذة)، والذهبي في السير ١٥/ ٥٦١، والتاريخ ص ٢٤١، والمقريزي في اتعاظ الحنفا، وحاجي خليفة في الكشف ٢٧ بعنوان أخبار الدولة.

وهو تاريخ حافل بسط فيه القول عن ظهور عبيدالله المهدي بأفريقية، وانتشار دعوته بها، وسقوط دولة بني الأغلب وماحصل من الأحداث في تلك الفترة[٤١].

١١ـ ذم إخراج الدم.

ذكره ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء ص ٤٨٢بعنوان «التحذر من إخراج الدم من غير حاجة دعت إلى إخراجه»، والذهبي في السير ١٥/ ٥٦١، والتاريخ ٢٤١، وحاجي خليفة في الكشف ٨٦٤، والبغدادي في الهدية ١/ ٧٠ .

١٢ـ رسالة الأدوية.

ذكرت في سلم الوصول ولعلها «إبدال الأدوية»[٤٢].

١٣ـ رسالة في النفس.

ذكرها صاعد في طبقات الأمم/ ١٥٤، وابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء ص ٤٨٢، وياقوت في معجمه ٢/ ١٣٦، والذهبي في السير، ١٥/ ٥٦١، والتاريخ ٢٤١ بعنوان «النفس وأقوال الأوائل فيها». والصفدي في الوافي ٦/ ٢٠٨ بعنوان «رسالة في النفس»، وحاجي خليفة في الكشف ٨٩٦، والبغدادي في الهدية ١/ ٧٠.

١٤ـ «الزكام» وأسبابه وعلاجه.

ذكره في عيون الأنباء ٤٨٢، والصفدي في الوافي ٦/ ٢٠٨، وحاجي خليفة في كشف الظنون ٨٧٠، والبغدادي في الهدية ١/ ٧٠.

١٥ ـ زاد المسافر في علاج الفقراء والمساكين.

ذكره البغدادي في الهدية ١/ ٧٠، وفي إيضاح المكنون ١/ ٦٠٧، وقال الحبيب الهيلة[٤٣]: «ويمكن أن يكون هو بذاته كتاب طب الفقراء»، وأكد ذلك ابن مراد [٤٤] فقال: «والكتاب هو فعلاً طب الفقراء والمساكين». وهذا هو مذهب بروكلمان أيضاً، وقد اطلع لكلرك على مخطوطة هذا الكتاب ووصفها في تاريخه وصفاً موجزاً واعتبرها نسخة مختصرة مشوهة من كتاب زاد المسافر.

١٦ـ كتاب السموم.

ذكره ابن الجزار نفسه في كتابه الاعتماد

في المقالة الرابعة ص١٤٧ من منشورات سزكين وفي خاتمة الكتاب أيضا وذكره ابن البيطار في مفرداته[٤٥].

١٧ـ طبقات القضاة.

نقل عنه القاضي عياض في المدارك وكأنه خصصه لتراجم العلماء الذين تداولوا على قضاء أفريقية إلى عصره[٤٦].

١٨ـ عجائب البلدان.

وقيل «عجائب الأرض».

نقل عنه ابن البيطار في مادة «زمرد» وذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ١١٢٦، وفي إيضاح المكنون ٢/ ٩٣، وهدية العارفين ١/ ٧٠.

وهو تقويم البلدان ووصفها، ورد ذكره مراراً في الكتاب المعروف بجغرافية المأمون المنسوب إلى الفزاري، ونقل عنه فصلاً في وصف مدينة رومية.

وذكر حسن حسني عبدالوهاب أنه يوجد منه نسخة في خزانة كتب المرحوم الباشا المصلوحي قائد بني رزين من بلاد غمارة في ناحية الريف من المغرب الأقصى[٤٧].

١٩ـ «الفصول» في سائر البلاغات والعلوم.

ذكره ابن جلجل ص ٨٩، وابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء ٤٨٢، والبغدادي في الهدية ١/ ٧٠.

٢٠ـ قوت المقيم.

ذكره ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء ٤٨٢، وقال: حكى الصاحب جمال الدين بن القفطي أنه رأى له بقفط – في مصر – كتاباً كبيراً في الطب اسمه «قوت المقيم» وكان عشرين مجلداً. وذكره البغدادي في الهدية ١/ ٧٠.

٢١ـ كتاب عن النسيان وتقوية الذاكرة.

ذكره بروكلمان ٤/ ٢٩٨، ترجم إلى العبرية واللاتينية (شتاين شنايدر ٤٥٢).

٢٢ـ كتاب في الحيوان.

ذكره ابن الجزار نفسه في خاتمة كتاب الاعتماد[٤٨].

٢٣ ـ كتاب في منافع الأغذية.

ذكره ابن الجزار في خاتمة كتاب الاعتماد[٤٩].

٢٤ـ «مجربات» في الطب.

ذكره ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء ص ٤٨٢، وحاجي خليفة في الكشف ١٥٩٢، وإيضاح المكنون ٢/ ٤٣١، والهدية ١/ ٧٠، ويذكر Le clerc أن منه نسخة بالقسطنطينية[٥٠].

٢٥ـ «المختبرات».

ذكره ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء

ص ٤٨٢، وفي هدية العارفين ١/ ٧٠ بلفظ «المنخبرات».

٢٦ـ مغازي أفريقية.

في أخبار فتح العرب لبلاد تونس، ولم نر من بين المؤرخين من ذكره سوى أبي عبيد البكري في «مسالكه»[٥١].

٢٧ـ «المقعدة وأوجاعها» رسالة.

ذكرها ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء ص ٤٨٢، وحاجي خليفة في سلم الوصول[٥٢].

٢٨ـ «المكلل» في الأدب والسياسة.

ذكره ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء ص ٤٨٢، والبغدادي في الهدية ١/ ٧٠.

٢٩ـ صائح الأبرار.

ذكره ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء ص ٤٨٢، والصفدي في الوافي ٦/ ٢٠٨ وحاجي خليفة في كشف الظنون ١٩٥٥، وذكره المؤلف في طب المشائخ، والبغدادي في الهدية ١/ ٧٠.

٣٠ـ النصح.

ذكره ابن الجزار نفسه في طب المشائخ وقال إنه جمع فيه أدوية الملوك والخواص[٥٣].

٣١ـ النوم واليقظة.

ذكره ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء ٤٨٢، والصفدي في الوافي ٦/ ٢٠٨، وحاجي خليفة في كشف الظنون ٨٩٦، وقال: كتبها إلى ابن أبي فضالة، والبغدادي في الهدية ١/ ٧٠.

خاتمة :

بعد هذه الجولة في آثار ابن الجزار ماوصل إلينا منها ومالم يصل، لابد لنا من أن نلقي نظرة سريعة على تأثير ابن الجزار في الحضارة العربية الإسلامية، وتأثيره في الثقافة الغربية في عصره وماتلاه من عصور وعلى بعض ملامح منهجه العلمي.

لقد بدأ تأثير ابن الجزار في الثقافة العربية الإسلامية وهو لايزال على قيد الحياة بكتابه «زاد المسافر» خاصة الذي حظي بمنزلة كبيرة جداً في المشرق العربي وفي الأندلس.

وكذلك كتابه الاعتماد في الأدوية المفردة، الذي ينقل عنه ابن البيطار في كتابه الجامع لمفردات الأدوية، فقد نقل عنه في أكثر من ثلاثين موضعاً.

ومن جملة من نقل عنه في كتبه الطبية أبو القاسم الزهراوي في «التصريف لمن عجز عن التأليف». وابن سينا في «القانون» والشريف الإدريسي في «الجامع لصفات أشتات النبات».

أما تأثيره في الثقافة الغربية فقد كان عن

طريق الترجمة إلى اللغات العلمية المستعملة في أوروبا في القرن العاشر إلى السادس العشر الميلاديين، وأهمها اللاتينية والإغريقية، فقد ترجمت كتب ابن الجزار إلى هذه اللغات في الوقت الذي لاتزال الثقافة اليونانية الطبية والصيدلية هي الرافد الأساسي للثقافة العربية الإسلامية(٥٠).

أما عن منهج ابن الجزار العلمي فإن أهم سماته تتمثل فيما يلي:

١ - ذكر المصادر :

فهو يذكرها ويذكر أسماء أصحابها بكثير من التقدير والإجلال ويثني على مجهوداتهم الكبرى.

٢ - النقد :

ويتمثل في أمور وهي:

آ - محاولة منه لتكميل مابدا له ناقصاً أو مشتتاً، فهو يرى مثلاً «أن معرفة سياسة الصبيان وتدبيرهم باب عظيم الخطر، جليل القدر، ولكنه لم ير لأحد من الأوائل المتقدمين في ذلك كتاباً كاملاً.

ب - محاولة منه لإيجاد صيغة أفضل لتقديم المعلومات بطريقة تتجنب الإطالة المملة أو التقصير المخل، فقد رأى كثيراً من عظماء الأطباء وأفاضلهم وضعوا كتباً في علاج الأدواء التي تعرض في جميع أعضاء البدن. إلا أن منهم من طول وأكثر في مقدار الحاجة ومنهم من قصر عما يحتاج إليه، فقام بوضع تأليف وسط فكان كتابه طب الفقراء.

ج - محاولة منه لتعويض مابدا له غير مفيد، فيذكر مثلاً وصفة وضعها الأقدمون ثم ينبه القارىء أنه إذا لم تنفعه هذه الوصفة فما عليه إلا أن يجرب وصفة أخرى وضعها هو بنفسه تعوّض عن الوصفة الأخرى.

٣ - التبويب المنطقي :

يحاول ابن الجزار أن يكون واضحاً تمام الوضوح فيما يضعه أمام القارىء من تأليف. فكتابه الاعتماد مقسم إلى أربع مقالات مرتبة حسب درجة قوة الأدوية. وهو ترتيب من مبتكراته، أما زاد المسافر فمقسم إلى سبع مقالات مقسمة بدورها إلى فصول حسب أمراض الجسم من أعلى إلى أسفل. وكذلك في كتاب العطور، فيذكر أن الأصول التي يبنى عليها جميع العطر تنقسم إلى قسمين: باردة وحارة. وأصول الحارة أربعة وهي المسك والعنبر والعود والزعفران وأصول الباردة أربعة الكافور والصندل والورد والأشنة.

وهذا طابع سائر كتبه وكأنه مغرم بالتقسيم المنطقي، فهو يحاول دائماً أن يقدم مادته حسب مراحل معينة مضبوطة.

رحم الله ابن الجزار هذا الابن البار للثقافة العربية والإسلامية بل للثقافة الإنسانية جمعاء، ونسأل الله أن يُعيد لهذه الأمة سالف مجدها ودورها في بناء الحضارة الإنسانية. ■

الهوامش :

(١) ممن اشتهر بتونس من الأطباء إسحاق بن عمران (٢٩٤ أو ٢٩٥ هـ) وإسحاق بن سليمان الإسرائيلي (ت نحو ٣٢٠ هـ) ومحمد ابن أحمد بن أبي خالد الجزار (المتوفي في النصف الأول من القرن الرابع للهجرة وإبراهيم بن أبي بكر بن الجزار أخو محمد وزياد بن خلفون والفضل بن علي بن ظفر وغيرهم ورقات ص ٢٣٣ ومابعدها.

(٢) إبراهيم الثاني الأغلبي : هو إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب ، تاسع الأمراء من آل بيته، تولى حكم أفريقية من سنة ٢٦١ – ٢٨٩ وكان شديد الطلب ، مولعاً بمصاحبة العلماء الأجلاء، يميل إلى العلوم الرياضية ولاسيما الفلك مع إتقانه لعلوم الدين واللغة والأدب وينشد الشعر الرقيق، وكان يشارك في مناظرة العلماء ت سنة ٢٨٩: ورقات عن الحضارة العربية ١/ ٢٢٢.

(٣) بيت الحكمة : أسسه إبراهيم الثاني الأغلبي في مدينة الرقادة قرب القيروان وأطلق عليه هذا الاسم تيمناً بسمتيها العباسية وعين لها ناظراً سماه صاحب بيت الحكمة، جمع لها نفائس الكتب وآلاف الرصد حتى صارت مركز إشعاع علمي كبير كان له أثر جليل في نقل العلوم العربية في الطب وغيره لتصل إلى صقلية وإيطاليا، بقي بين الحكمة يؤدي دوره الكبير في صنوف المعرفة حتى استيلاء عبيدالله المهدي على البلاد التونسية، فحوله إلى مركز لبث الدعوة الفاطمية الإسماعيلية لصالح العبيديين فلم ير علماء المعهد بعد أن انتفت الغاية العلمية من وجودهم فيه إلا الهجرة إلى خارج البلاد». السامرائي، مختصر تاريخ الطب ١/ ٥٥٩.

(٤) المنستير : مدينة بساحل أفريقية كان يرابط بها المتعبدون وبعض الزهاد، وفي آخر كتاب «شجرة النور الزكية» رسالة في الكلام على المنستير وفضائلها وجغرافيتها ووصفها.

(٥) طبقات ابن جلجل ص ٨٨ – ٩١

(٦) نفس المصدر السابق.

(٧) طبقات الأمم لصاعد الأندلسي ص ١٥٣ – ١٥٤.

(٨) معجم الأدباء ٢/ ١٣٦.

(٩) تاريخ الإسلام للذهبي ٢٤١.

(١٠) ابن عذاري في البيان المغرب ج١ ص ٢٣٧.

(١١) تاريخ التراث العربي ٣/ ٣٠٤ – ٣٠٧.

(١٢) ورقات ١/ ٣١٩.

(١٣) ابن مراد في بحوث في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ص ١٨٦.

(١٤) مقدمة سياسة الصبيان ص ٣٣ – ٣٥.

(١٥) حاجي خليفة في كشف الظنون ٢٧، ١٢٠، ٢٥١، ٢٥٣، ٤٢٠، ٨٤١، ٨٥٧، ٨٦٤، ٨٧٠، ٨٩٦، ٨٩٧.

(١٦) ٩٤٦، ١٠٩٥، ١١٢٦، ١١٧١، ١٢٥٦، ١٥٩٢، ١٩٥٥.

والقول في ترجيح رأي ابن عذاري لأسباب:

– الراجح أن ابن عذاري نقل عن إبراهيم بن القاسم الرقيق ت ٤١٧ وهو قيرواني معاصر لابن الجزار.

– أن ابن الجزار توفي قبل سنة ٣٧٧ هـ وهو تاريخ تأليف طبقات ابن جلجل الذي يذكر موته.

– اطلع ابن الجزار على كتاب الحروف للقزاز الذي ألفه استجابة لرغبة المعز العبيدي وأكمله في سنة ٣٦١ محمد الحبيب الهيلة في مقدمة سياسة الصبيان.

(١٧) هنـاك كثير من المستشرقين الذين اهتمـوا في تـاريخ الحضـارة الإسـلاميـة وتـاريخ الطب العـربي خاصـة مثل مـايرهـوف، وهيرشبرغ وأولمان وسارتون ولوكلير وبروكلمان.
(١٨) سزكين ٣/ ٣٠٤ - ٣٠٧.
(١٩) مقدمة سياسة الصبيان ص ٣٨.
(٢٠) الوافي بالوفيات للصفدي ٦/ ٢٠٨.
(٢١) فهرس سباط ١/ ٧٦.
(٢٢) مقدمة سياسة الصبيان ص ٣٨.
(٢٣) عيون الأنباء ص ٤٨٢ وغيره.
(٢٤) راجع بحثـاً مهماً في التعـريف بـالكتـاب للأستاذ إبراهيم بن مراد في كتابـه بحوث في تاريخ الطب... ص ٣٠٧.
(٢٥) كـوركيس عـواد في بحث عن المخطـوطـات الطبيـة نشره في مجلـة سـومـر العـراقيـة مج١٥/١٩٥٩ ص٣٩
(٢٦) مقدمة سياسة الصبيان ص ٤٢.
(٢٧) قام خلاف ونقاش حول نسبة الكتاب فنشر الأستاذ قطاية اعتراضه على نسبة الكتاب لابن الجزار في «أخبار التراث العربي» الصادرة عن معهد المخطوطات العربيـة بالكويت عدد ١٦/ ١٩٨٤ ص ٨. ثم نشر مـايؤيـد ذلك الأسـتـاذ محمـود الحاج قـاسـم محمـد من الموصل في «أخبـار التراث العـربي» عـدد ١٩/ ١٩٨٤ ص٦، ثم انتصر لـرأي الأطـرقجي الـدكتـور عادل البكـري من جامعـة المستنصرية. ونشر بحثـه في «أخبـار التراث العـربي» عـدد ٢٠/ ١٩٨٥ ص٦- ٨، وقدم لإثبـات نسبة الكتـاب لابن الجزار حججاً من الكتاب نفسه.
(٢٨) ذخائر التراث.
(٢٩) بالإضافة إلى أن رقم ٦٤٢٦ في فهرس برلين ليس مجمـوع أصلاً وإنما هـو كتاب المعتمـد الذي تحدث عنه ابن مراد.
(٣٠) ورقات ١/ ٣٢٠.
(٣١) ترجمته في معجم المؤلفين لكحالة ٧/ ٩٤.
(٣٢) من كتاب علي بن رضـوان نسخة دار الكتب رقم (١٠١/ ط)، سلمان قطاية: مقـدمة كتاب المعدة ص ٢٥ ، ٢٧.
(٣٣) مقدمة سياسة الصبيان ص ٤٥.
(٣٤) ورقات ١/ ٣١٩.
(٣٥) ريـاض النفـوس للمالكي ٢/ ٤٣٠، ٤٣١، ٤٧٧.
(٣٦) وفيـات الأعيان لابن خلكـان ١/ ٢٣٨، ٤/ ٦٢، ٣٧٥.
(٣٧) تراجم أغلبية مستخرجـة من مدارك القاضي عياض لمحمد الطالبي ص ٧٩ - ١٧٢ وغيرها.
(٣٨) مقدمة سياسة الصبيان ص ٤٦.
(٣٩) المرجع السابق ص ٤٩.
(٤٠) ورقات ١/ ٣١٧.
(٤١) المصدر السابق ١/ ٣١٨.
(٤٢) مقدمة سياسة الصبيان ص ٤٧.
(٤٣) المرجع السابق ص ٤٨.
(٤٤) بحوث في تاريخ الطب... ص ٧٦.
(٤٥) مفردات ابن البيطار في مادة «شجرة الدب».
(٤٦) تراجم أغلبية مستخرجـة من مدارك القاضي عياض لمحمد الطالبي ص ٤١.
(٤٧) ورقات ١/ ٣١٩.
(٤٨) خـاتمة كتاب الاعتماد (منشـورات سـزكين ص ١٨٠).
(٤٩) المرجع السابق.
(٥٠) مقـدمـة سيـاسـة الصبيـان ص نقـلاً عن لوكلارك: تاريخ الطب العربي ١/ ٤١٦.
(٥١) ورقات ١/ ٣١٩.
(٥٢) مقدمة سياسة الصبيان ص ٤٧.
(٥٣) ورقات ١/ ٣١٧.

مصادر ترجمة ابن الجزار

- **صاعد بن أحمد بن عبدالرحمن الأندلسي ٤٢٠ - ٤٦٢ هـ.**
طبقات الأمم / تحقيق حياة بوعلوان . ـــ بيروت : دار الطليعة ، ١٩٨٥ (ص ١٥٤).

- **ابن جلجل ، سليمان بن حسان ٣٣٢ - بعد ٣٧٧ هـ.**
طبقات الأطباء والحكماء / تحقيق فؤاد سيد . ـــ القاهرة : مطبعة المعهد العلمي الفرنسي ، ١٩٥٥ (٨٨ - ٩٠).

- **ابن أبي أصيبعة ، أحمد بن القاسم ٥٩٦ - ٦٦٨ هـ.**
عيون الأنباء في طبقات الأطباء / تحقيق نزار رضا . ـــ بيروت : دار مكتبة الحياة ، ١٩٦٥ (ص ٤٨١ - ٤٨٢).

- **ياقوت الحموي ، ابن عبدالله ت ٦٢٦**
معجم الأدباء المعروف بـ إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب . ـــ [دمشق] : دار الفكر ، ١٩٨٠ (ج٢ ، ص ١٣٦ - ١٣٧).

- **الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨ هـ.**
- سير أعلام النبلاء / أشرف على تحقيقه شعيب الأرناؤوط .
ـــ بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٣ (ج١٥ ، ص ٥٦١ - ٥٦٢).

- **تاريخ الإسلام / تحقيق عمر عبدالسلام تدمري .**
ـــ بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٨٩ (حوادث ووفيات ٣٥١ - ٣٨٠ ص ٢٤١.

- **المقريزي ، أحمد بن علي ٧٦٦ - ٨٤٥ هـ.**
اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا / تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة : لجنة إحياء التراث الإسلامي ، ١٩٦٧.

- **صلاح الدين الصفدي ، خليل بن أيبك.**
الوافي بالوفيات / اعتناء س. ديدرينغ . ـــ دار النشر فرانز شتاينر بغسبادن ، ١٩٦٢ (ج ٦ ص).

- **القفطي ، علي بن يوسف ت ٦٤٦ هـ.**
إنباه الرواة على أنباه النحاة / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . ـــ القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٩٥٢ (ج٢ ص ١٧٣).

- **ابن فضل الله العمري ، أحمد بن يحيى ٧٠٠ - ٧٤٩ هـ. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار منشورات سزكين (ج٩ ص ٣٠٩).**

- **الحاج خليفة، مصطفى بن عبد الله ١٠١٧ - ١٠٦٧هـ**
كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . ـــ بيروت : دار الفكر ، ١٩٨٢.

- **البابانى البغدادي ، إسماعيل بن محمد أمين ت ١٣٣٩.**
- هدية العارفين . ـــ بيروت : دار الفكر ، ١٩٨٢ (١/ ٧٠).

- **إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون .**
ـــ بيروت : دار الفكر ، ١٩٨٢.

- **كارل بروكلمان**
تاريخ الأدب العربي / نقله إلى العربية السيد يعقوب بكر ورمضان عبدالتواب . ـــ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٣ (ج ٤ ص ٢٩٦).

- **فؤاد ، سزكين**
تاريخ التراث العربي

- **حسن حسني عبدالوهاب**
ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية . ـــ تونس : مكتبة المنار ، ١٩٦٥ (١/ ٣٠٦ -).

- **علي عبدالله الدفاع**
إسهام علماء العرب والمسلمين في الصيدلة . — بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٥ (ص ٢٦٨).

- **إبراهيم بن مراد**
بحوث في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب . — بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ١٩٩١ م.

- **محمد الحبيب الهيلة**
مقدمة سياسة الصبيان لابن الجزار . — تونس : الدار التونسية للنشر ، ١٩٦٨.

- **خير الدين الزركلي**
الأعلام . — بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٩.

- **عمر رضا كحالة**
معجم المؤلفين . — دمشق : مطبعة الترقي ، ١٩٦٠.

- **عبد السلام الترمانيني**
أحداث التاريخ الإسلامي . — دمشق : دار طلاس ، ١٩٩١.

- **عبد الوهاب الدخلي**
الإسهام التونسي في تحقيق التراث المخطوط . — قرطاج : بيت الحكمة ، ١٩٩٠.

- **عبدالكريم اليافي**
علماء العقاقير النباتية في الحضارة العربية الإسلامية
مجلة التراث العربي ع ٢١/ ١٩٨٥ ص ٥٣.

- **شوكت موفق الشطي**
تاريخ الطب . — دمشق : مطبعة الجامعة السورية ، ١٩٥٧ (ج٣ ، ص ١٨٠).

- **كوركيس عواد**
بحث عن مخطوطات في الطب نشره في مجلة سومر العراقية مج١٥/١٩٥٩ م.

- **كمال السامرائي**
مختصر تاريخ الطب . — بيروت : دار نضال ، ١٩٨٩.

- **محمد بن سعد الشويعر**
عرض وتلخيص لكتاب «سياسة الصبيان» نشره في مجلة الفيصل ع٢٤/ ١٩٧٩ ص٦٨-٧١

- **ألدوميللي**
العلم عند العرب / ترجمة عبدالحليم النجار ومحمد يوسف موسى . — القاهرة : دار القلم ، ١٩٦٢.

- **ابن عذاري ، محمد المراكشي ت ٦٩٥**
البيان المعزب في حلي المغرب

- **العيون والحدائق في أخبار الحقائق لمؤلف مجهول**
تحقيق نبيلة عبدالمنعم داوود . — العراق ، مطبعة النعمان ، ١٩٧٢.

- **هيكل نعمة الله والياس مليحة**
موسوعة علماء الطب . — بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٩١ م.

- **القاضي عياض بن موسى اليحصبي ٤٧٦ - ٥٤٤**
تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض/ تحقيق محمد الطالبي . — تونس : الجامعة التونسية ، ١٩٦٨.

- **جمعة ، شيخة**
بحث بعنوان المنهج العلمي عند ابن الجزار منه نسخة في مركز جمعة الماجد.

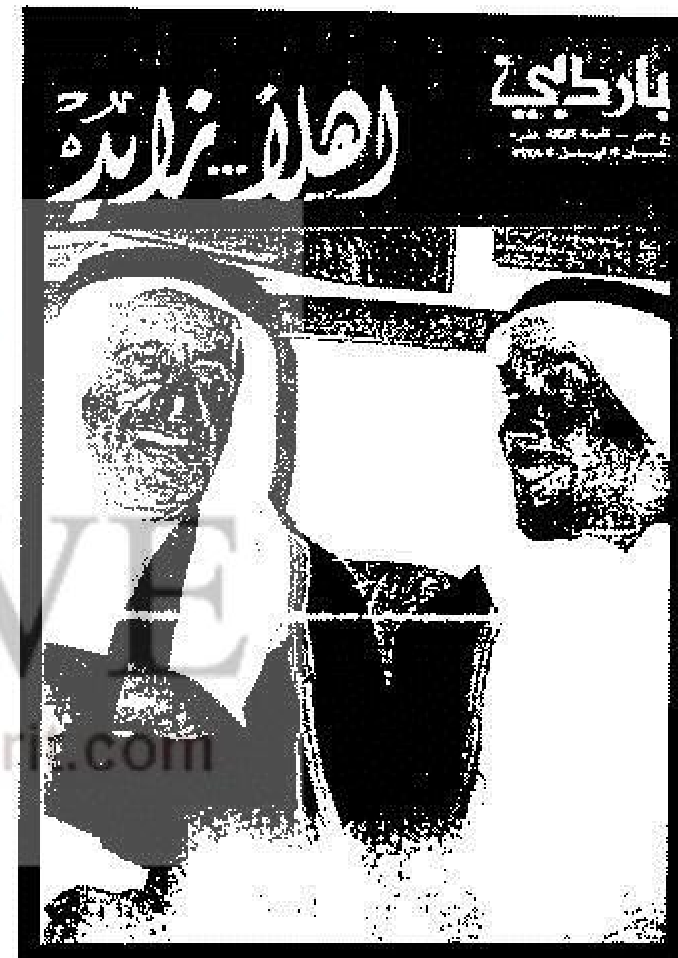
وهناك مصادر كثيرة ذكرت ابن الجزار لم أذكرها خشية الإطالة وقد أحصى بعضها الأستاذ محمد الحبيب الهيلة في مقدمة سياسة الصبيان وإبراهيم بن مراد في «بحوث في تاريخ الطب...».

خواطر وآراء

حـــول مجلة

أخبار دبي

اعداد: محمد نذير الغريب

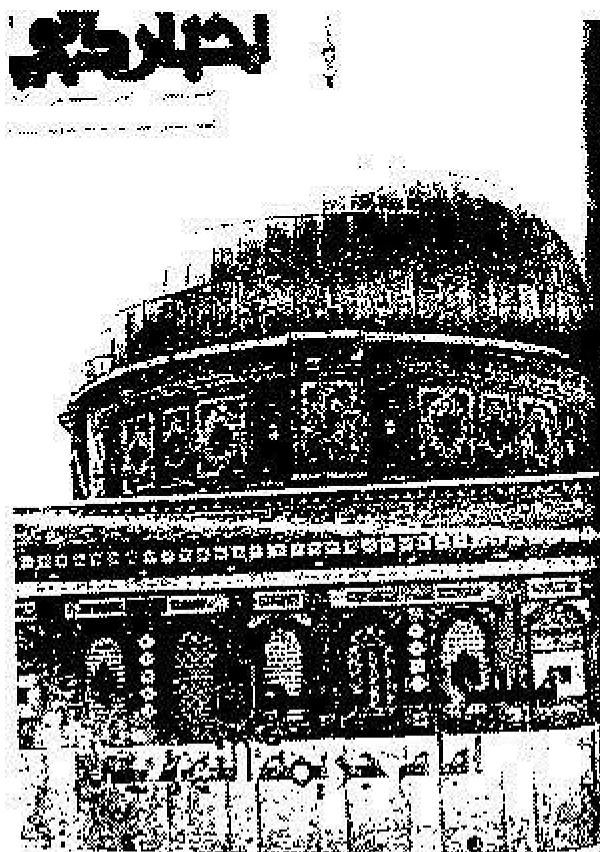




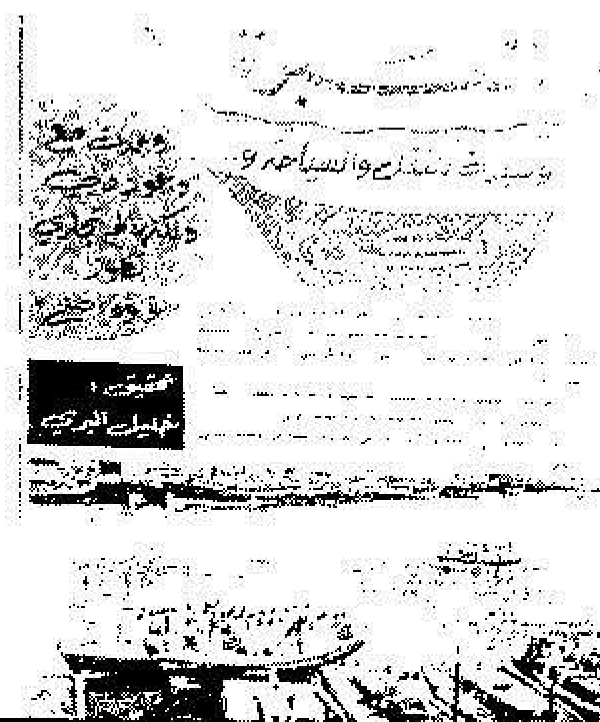


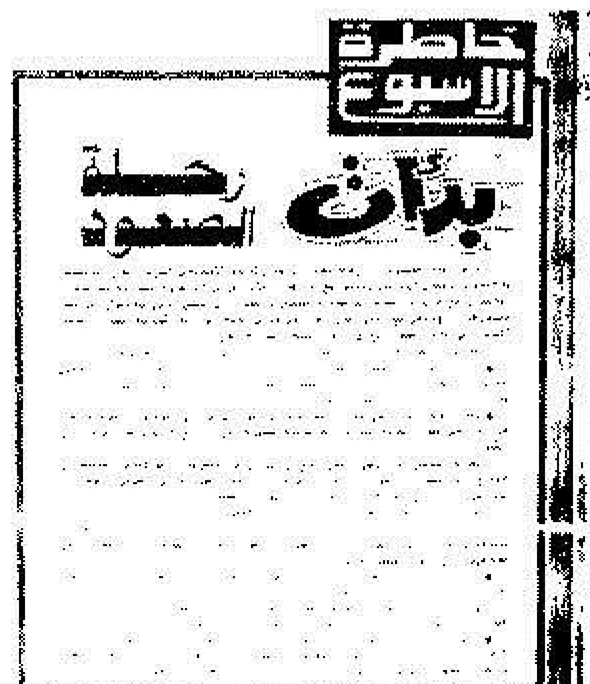












«..لم نكن حينذاك نتصور أبداً أن هذه المجلة ستكون الشاهد الوحيد الذي قيض له أن يواكب نهضة دولة الإمارات خطوة خطوة حتى أصبحت هذه الدولة راسخة الأركان، وأصبح ذكرها ملء السمع والبصر كما هو شأنها الآن».

مدير بلدية دبي








بدأت مجلة «أخبار دبي» بالصدور على شكل نشرة إخبارية محلية (استانسل)، ثم تطورت بعد ذلك إلى نشرة دورية، ومن ثم إلى شبه جريدة محلية تحولت بعدها إلى جريدة نصف شهرية، وأخيراً إلى مجلة أسبوعية متنوعة.

ولعلنا نستهل حديثنا عن تلك الدورية بافتتاحية العدد الأول، التي كتبها أمين المكتبة العامة بدبي أمين صقر في يوم السبت ١٤ رمضان ١٣٨٤ هـ الموافق ١٦ يناير ١٩٦٥م، وكانت حينذاك تصدر عن المكتبة العامة في إمارة دبي، وجاء فيها:

«نحمد الله تبارك وتعالى الذي بفضله خرجت هذه النشرة الإخبارية إلى النور، ومن حسن يمن الطالع أن صادف بزوغها حلول شهر رمضان المعظم، وبهذه المناسبة الكريمة نتقدم بأطيب التهاني لحاكم دبي المعظم الشيخ راشد بن سعيد المكتوم وللمواطنين كافة، راجين المولى عز وجل أن يعيده على المسلمين باليمن والبركات.

«**والغرض من إصدار هذه النشرة هو الإسهام بقدر الجهد المتواضع والإمكانيات المحدودة في نشر الثقافة وكل ماهو نافع لهذا البلد الطيب والسادة المواطنين، وليست هذه النشرة قاصرة على جهة ما، أو وقفاً على طائفة معينة، بل هي ملك للجميع**».

«كما يسعدنا أن نتلقى كل ماهو نافع لنشره، وكذا الرسائل للرد عليها أو نشرها إذا لزم الأمر. ولايغرب عن الذهن أن بالنشرة أبواباً نذكر منها على سبيل المثال أخبار سمو الحاكم والحكومة، كما تتناول النواحي الدينية والأدبية والعلمية والطبية والاقتصادية والتربوية

والرياضية، وعلاوة على ذلك تقبل الإعلانات العامة والخاصة لنشرها وكذلك التهاني. والله تعالى نسأل أن يوفقنا بالمسير بهذا العمل الخيرّ دائماً في خدمة الصالح العام، وهو ولي التوفيق».

بدأت نشرة أخبار دبي بالصدور عندما اقترح كمال حمزة مدير البلدية آنذاك (عام ١٩٦٥) إصدار نشرة إخبارية تحصر أعمال مجلس البلدية والدوائر الحكومية، وذلك بالتعاون مع كل من أمين صقر (أمين المكتبة العامة) وعبد الغفار حسين (مساعد مدير البلدية) والدكتور ياقوت السهوي (المشرف العام على الصحة في البلدية). تحقق هذا الاقتراح فصدرت النشرة التي تحولت إلى جريدة ثم إلى مجلة واكبت تطور إمارة دبي.

كانت نشرة أخبار دبي تتطور من حيث الكمية والنوعية، ومن حيث الشكل والمضمون بالرغم من العقبات الجمة التي واجهتها البدايات، فقد شحت مواردها المادية لأن رسوم الاشتراكات والإعلانات كانت رمزية، ولم تتوافر لها كذلك القدرات الفنية والطباعية ولم يكن يطبع في بدايتها سوى خمسمائة نسخة فأصبحت ألف نسخة بعد عام ثم ألفين فيما بعد.

وأما مايتعلق بوجود الكفايات الفكرية فكان هناك ندرة في الأقلام المتخصصة لتغطية أبواب هذه المجلة.

وبالرغم من كل هذه العقبات فقد أصبح للمجلة أسواق رائجة على الصعيد العربي، وفي كل من ألمانيا وبريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية وإندونيسيا، وساعد على انتشارها النشاط التجاري الهام لإمارة دبي، وذلك باستقطابها المشتغلين بالتجارة الذين اشتركوا فيها.

كانت المجلة في تطور دائم ومستمر، يتماشى مع التطور السياسي والاجتماعي والاقتصادي لإمارة دبي. ففي عام ١٩٦٨، مع الذكرى السنوية الرابعة لها، طرأ على الجريدة تجديد من حيث الشكل والمضمون فأصبحت مجلة أسبوعية إعلامية جامعة، وظهر فيها أبواب جديدة مثل:

«رسائل إلى المحرر»، «زاوية الطبيب»، «استطلاع الأسبوع»، «قصة العدد»، «الرياضة»، «الأدب»، «التعارف»، «مسابقة الأسبوع»، «كلمات متقاطعة».

ثم مـــالبثت أن احتجبت عن الصدور خمسة أشهر تقريباً، إلى أن صدر عددها الأول في منتصف عـــام ١٩٧٠ بإخـراج جديـد بواسطة التنضيد الآلي وطباعة الأوفست، بعد أن كانت تصدر على شكل عادي جداً وبطريقة لاتلائم طبيعة العصر، ولقد اقترح أحد القراء وقتها أن يبدل اسم مجلة أخبار دبي إلى مجلة «أخبار الإمارات»، إلا أن هيئة التحرير رأت الإبقاء على الاسم حتى بعد قيام دولة الاتحاد مع الأخذ بعين الاعتبار إبراز وجه دبي التجاري، لاسيما وأن لدى المجلة مراسلين في الإمارات كلها يزودونها بالأخبار والاستطلاعات والتحقيقات.

ورأيت من الطريف أن أنتقي بعض العناوين البارزة الواردة على أغلفة المجلة التي تطرّقت إلى مواضيع سياسية واقتصادية وحضارية واجتماعية وطبية ورياضية...إلخ

فمن الموضوعات السياسية :

«نتائج إيجابية لاجتماعات مجلس حكام الإمارات المتصالحة»، «لقاء من أجل إقامة اتحاد الإمارات العربية بين عاهلي إمارتي دبي وأبوظبي»، «الدولة العربية الجديدة: الإمارات العربية المتحدة» «حققنا الخطوة الأولى نحو اتحاد الإمارات التسع»، «اتحاد الإمارات العربية: دولة مستقلة ذات سيادة»، «العيد الأول لقيام دولة الإمارات العربية المتحدة»، «بدأت حرب التحرير [حرب تشرين التحريرية]»، «رحم الله الفيصل [ذكرى وفاة الملك فيصل]»، «محمد بن راشد: أمنك بخير.. أنت بخير»، «محمد بن راشد يعلن: مطاراتنا مغلقة في وجه الخاطفين [إثر عملية اختطاف طائرة]»، «بومدين في ذمة الله [وفاة الرئيس الجزائري]»، «راشد بن سعيد: نعم.. للاتحاد وسيادة الدستور»، «إعدام بوتو.. مهزلة قانونية على مسرح السياسة»، «علاقات أخوية وثيقة بين الإمارات وعمان»، «آخر توقيع لآخر إنجاز عربي حققه الرئيس الراحل لحقن الدماء العربية [ذكرى وفاة الرئيس عبد الناصر]»، «موطن الإسراء والمعراج: ١١ عاماً في الأغلال»

ومن الموضوعات الاقتصادية :

«استقبل ميناء راشد خمساً وستين باخرة خلال الشهر الماضي»، «دبي احتفلت بتدشين خزان النفط العائم رقم ٢»،

«افتتاح ميناء زايد بحضور رئيس الدولة ونائب رئيس الدولة»، «ميناء راشد البحري أكبر ميناء في الشرق الأوسط»، «دولة الإمارات العربية المتحدة تصدر نقدها الموحد الجديد»، «كيف حقق راشد ازدهار دبي بلا بترول»، «بدأ إنشاء حوض دبي العملاق»، «ألف مليون دولار لإنشاء منطقة حرة في دبي»، «٨٠ مليون دولار لاستثمار غاز دبي»، «حمدان بن راشد: التصنيع البتروكيماوي.. يحتل المرتبة الأولى»، «مدينة صناعية كبرى تقام في جبل علي»، «مصنع إسمنت الشارقة أحد دعائم الدولة...»، «دبي أقامت مصنع الحديد والصلب»، «الزراعة داخل بيوت مكيفة»، «مليار درهم للماء والكهرباء في جبل علي»، «حوض دبي الجاف يستعد لاستقبال الناقلات العملاقة»، «السمك.. أبقى من النفط».

ومن الموضوعات الحضارية :

«دبي تحتفل بافتتاح المبنى الجديد لمطارها الدولي»، «مطار دبي الدولي يستقبل شهرياً ٩٢٠٠ قادم»، «دبي لؤلؤة الخليج عمرها ١٥٠٠ عام»، «٣٢ مليون درهم للمبنى البلدي الجديد»، «راشد افتتح جسر المكتوم الثاني»، «راشد: تخصيص ٣٠٠ مليون درهم للإسكان»، «محطة الأقمار الصناعية في دبي- أكبر إنماء تكنولوجي اتحادي»، «زايد وخليفة وراشد يفتتحون نفق الشندغة»، «أم القيوين بدأت رحلة الازدهار»، «برج راشد معلم على صفحة الإمارات»، «الهندسة العريقة في مساجدنا الجديدة»، «٣٠٠ مليون لأنفاق المرور».

ومن الموضوعات الاجتماعية :

«البستكية بين البقاء والزوال»، «الكهرباء زيادة في الأسعار... وزيادة في الانقطاع»، «مشاكل الهاتف.. إلى متى؟»، «الحفريات لماذا..؟ وإلى متى..؟»، «التأشيرات المزورة.. في مصيدة الأمن»، «رقابة هابطة = أفلام هدامة»، «مشروع راشد لرعاية المعوقين يدخل مرحلة الدراسة والتنفيذ»، «بعد منع الخمر، إجراءات لصيانة الأمن الأخلاقي»، «مشروع زايد.. وإعداد جيل قرآني»، «يتعلمن الحياكة بسجن النساء».

ومن الكتابات الطبية :

«لأول مرة في العالم قرنيات السمك لعيون الإنسان، نصر طبي في مستشفى راشد»، «٣٥٠ مليون لمستشفى دبي الجديد»، «مركز نموذجي

للخدمات الطبية تحضير الأدوية».

وفي المجال الرياضي :

«مبروك .. استاد النصر»،

«وفاز الأهلي بالكأس».

وقد شهد بنجاح المجلة وفد دولة قطر الذي زار دبي للاجتماع بمجلس بلديتها في يناير ١٩٦٩ م، وقد كان يتوقع أن لاتكون أخبار دبي سوى صفحات تحمل أخبار دبي الداخلية. ولدى متابعته لموادها وجدها تسابق عن جدارة أرقى وأكبر المجلات العربية. وقد زاده دهشة واستغراباً مدى قفزاتها الرائعة، ورأى فيها ثمرة جهد كبير، وأنها لايقف وراءها جهاز صحفي كامل كبقية الصحف والمجلات الأخرى وأنها في طريق تحقيق المزيد من القفزات الرائعة.

والجدير بالذكر هنا أن مجلة أخبار دبي كانت من أوائل المجلات الصادرة في دولة الإمارات العربية المتحدة، وصدر بعدها وبثلاث سنوات جريدة (اليقظة) في إمارة الشارقة كما قال كمال حمزة مدير بلدية دبي آنذاك.

صدر العدد الأخير من مجلة أخبار دبي في مارس/ آذار ١٩٨٠ بعد عمر حافل بالأحداث استمر زهاء خمسة عشر عاماً. ويسعدني أن أنهي هذه الخواطر بالكلمة الختامية التي خطها للعدد الأخير كمال حمزة، مدير البلدية وفيها:

«هذا هو العدد الأخير من مجلتكم أخبار دبي التي دأبت طيلة الخمسة عشر عاماً التي مضت على التجوال معكم في كل مكان وعلى أي صعيد، راصدة أحوالكم ومعلية صوتكم متحدثة باعتزاز عما أصبتموه وأصابه الوطن من تقدم ونهضة برعاية قادته المخلصين.

«وعندما أضع يدي على هذا العدد الأخير من أخبار دبي فإنني أعود بذاكرتي إلى بداية هذه المجلة حيث أخذت والزميلان السيد أمين صقر والسيد عبدالغفار حسين نكتب للعدد الأول.

«لذلك فإنني أتألم إذ أرى أن هذه المجلة ستتوقف عن أداء هذا الدور التاريخي العظيم. ولا يخفف ألمي سوى أملي بأن من سيخلفها سيحمل عنها هذه الشعلة الوضّاءة، ويتولى من بعدها إكمال المشوار».

«إنني أحمد الله على أن مكنني من بذل مابذلته في نطاق ذلك، وهنا فإنه لايسعني سوى أن أشيد بالجهاز الذي تعاقب على إصدار هذه المجلة الأم. فقد كان هذا الجهاز صغيراً في حجمه وتعداده وتكاليفه، ولكنه كان كبيراً في عطائه وإخلاصه».

«ففي أمان الله أيتها المجلة الحبيبة، وفي رعاية الله أيها الزملاء الكرام، وعزاؤنا في أن أخبار دبي التي ستتوقف كمجلة، وستستمر كنشرة تضم أخبار البلدية والدوائر الحكومية والإعلانات الرسمية وأخبار المجتمع، كما تواكب نشاط دولتنا الفتية».

وأخيراً أرى أنه من الضروري أن ألقي بعض الأضواء على آراء ثلة من أعلام الإمارات، أنقل معها تقييمهم لمسيرة مجلة أخبار دبي، وماقدمته خلال خمسة عشر عاماً:

السيد خليفة النابودة : مجلة أخبار دبي كانت سياسية وإعلامية وكانت أماً للصحافة.

السيد حبيب الرضا : المجلة غطّت مجالات السياسة والاجتماع والرياضة والإعلام.

المقدم خادم سرور المعتصم: المجلة قامت بنشر الثقافة والمعرفة.

السيد حسن أحمد الحاج حسن: المجلة حققت حضوراً على جميع المستويات المحلية والإقليمية والعالمية. كما كانت المرجع والأرشيف لكل وقائع الأحداث المحلية والخليجية والعربية والعالمية.

السيد ملاك أحمد زيد : المجلة سجل وثائقي يؤرخ لمسيرة البلاد.

المهندس شهاب غانم: مجلة أخبار دبي حافظت على توازن دقيق بين الرصانة والإمتاع.

السيد حميد سعيد الغيث: المجلة حققت الرضا لكل القطاعات.

وختاماً ومهما يكن من أمر فقد كانت مجلة أخبار دبي بمثابة سجل وثائقي حفظ لنا مراحل التطور والازدهار في المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية والطبية والفنية للإمارات عموماً ولدبي خاصة، وكان لاستمرار بلدية دبي بإصدار نشرة باسم نشرة أخبار دبي ضمان لاستمرار ذكرى المجلة واستمرار النشاطات المختلفة في الدولة. ■

المراجع :

١ – المعجم الموسوعي لمصطلحات المكتبات والمعلومات إنكليزي/ عربي. أحمد محمد الشامي، سيد حسب الله – الرياض: دار المريخ، ١٩٨٨.

٢ – أخبار دبي: نشرة/ إصدار المكتبة العامة بدبي.

٣ – أخبار دبي: مجلة/ إصدار بلدية دبي، مكتب الإعلام.

تطويع الفن لاكتساب مهارة القراءة للطفولة المبكرة

د. عايدة نصير

إن اكتساب مهارة القراءة عن طريق ربطها بأشكال الفن المتعددة سوف تساعد على تنمية وتطور شعور الطفل وإظهار إمكانياته وكفاءاته، وتكوين ثقته بنفسه واحترامه لذاته، وإشعاره بأنه فرد له كيانه ومكانته وكرامته. وتكسب الطفل الإحساس المرهف والانتماء لمجتمعه، وتنمّي فيه الشخصية الذّواقة المحبة للخير والحق والجمال، وتجنبه أن يصب في قالب جامد تفرضه المناهج المحددة والبرامج الجافة والكتب المقررة.

ولأن القراءة عملية شخصية بحتة فلا بد أن يعالجها أخصائي المكتبة بما يتناسب مع الطفل وبيئته، وظروفه، وقدراته، ومدى استجابته للكلمة المطبوعة. فقد وضعت المناهج التعليمية وصبت في برامج لتطبيقها وتعميمها على الكم الهائل من الأطفال، ولكن تبقى القراءة كمهارة فريدة في نوعها لايمكن أن تكتسب إلا إذا عومل الطفل كشخصية فريدة متميزة لها خصائصها المحددة التي تختلف عن أي شخصية أخرى بمكوناتها وقدراتها وتذوقها الفني الخاص وعاداتها المستمدة من البيئة المحيطة بمجتمعه الصغير داخل الأسرة، ومجتمعه الكبير في الحضانة والمكتبة.

ومن هنا لزم معالجة كل شخصية على حدة للتغلب على حاجز الربط بين الكلمة المسجلة سواء أكانت مرئية أم مسموعة أم معاشة، وبين استيعاب معناها عن طريق الكلمة المطبوعة.

وكما أن القراءة مهارة تكتسب حسب شخصية الطفل ومقوماتها والبيئة المحيطة بها والجهود المبذولة للوصول إلى هذا الهدف المنشود، كذلك فالتذوق الفني لفروع الفن وأشكاله المختلفة التي يمكننا أن نتعامل بها مع الأطفال حسب استعداد كل طفل وتذوقه الشخصي وتقبله لنوع من الفنون دون الآخر، وتوفير الوسائل السمعية والبصرية بالمكتبة لخدمة هذا الهدف التي يجب أن تشمل ضروب الفن المختلفة لوضع الجمل المكتوبة في قالب فني

محبب ومبتكر ومتنوع مع الموسيقى والرسم والشرائح الفيلمية والأفلام والفنون الأدبية، من مسرحية وقصة وتمثيلية وكتابة وشعر، ومحاولة توصيل الفكرة عن طريق أي من هذه الوسائط الفنية وربطها بالكلمة أو الجملة المنظورة، حيث إن الموسيقى قد تتكلم بصورة واضحة لطفل معين، بينما يحقق الرسم الرسالة المراد توصيلها لطفل آخر.

كذلك نجد أن الاستمتاع بنوع معين من الفنون يقودنا بالضرورة إلى الرغبة في الاستمتاع بأنواع أخرى من الفنون التي يمكن استخدامها جميعاً لتدريب الحواس من سمع وتذوق ولمس ونظر، وتوجيهها إلى خدمة حاسة النظر، وربطها بالكلمة المكتوبة كشكل من أشكال الفنون المختلفة، مع التعاون الكامل بين المكتبة والمدرسة ليتعرف أخصائي مكتبة الأطفال على المناهج بها. فقد يتبادر الخوف من عدم الالتزام بتطبيق مناهج تعليمية محددة ومفروضة على دور الحضانة عملاً بمبدأ تكافؤ الفرص وإتاحة المبادىء التعليمية الأولية والأساسية للطفل مثله كباقي الأطفال، ولكن يبقى دور المكتبة لتطويع الفن كجزء هام لاستكمال التعليم الأساسي لكل فرد، ويتعامل مع الطفل كشخصية مستقلة فإن من السهل إعطاء الطفل دروساً معينة، وتدريبه على مهارات محددة، ولكنه في النهاية سوف يتحول إلى آلة مفيدة، وليس كشخصية متناغمة ومتناسقة ومنسجمة في نموها وتطورها مع مجتمعها. **فعندما يتاح للطفل اكتساب الشعور الحي من تذوق الجمال ومعرفة القيم المختلفة، سيفهم دوافع الأشخاص المحيطين به، ويتعايش معهم في حدود علاقة سوية، اكتسبها من خلال سيطرته على مهارات الاتصال بينه – كشخصية مميزة – وبين الآخرين، بما توفره له المكتبة من وسائل تتعامل معه كفرد مميز، وليس كطفل بين مجموعة كبيرة.**

قدرات الطفل ومهارة القراءة :

توصل علماء النفس في دراساتهم المتنوعة إلى أن القدرات العقلية للطفل تتكامل قبل أن يتجاوز الرابعة من عمره، حيث وجد أن ٢٠٪ من النمو العقلي والإدراكي للطفل يتم في السنة الأولى من عمره، وأن ٥٠٪ من نموه العقلي يتكامل في الثامنة من عمره وأن ٩٢٪ من نموه العقلي يتم في السنة الثالثة عشرة. وعلى ذلك يجب التأكيد على ضرورة تنشيط القدرات العقلية والإدراكية للطفل، وتطوير مداركه الفكرية في السنوات الأولى من عمره، وتطويع تلك المدارك للتغلب على حاجز استيعاب الكلمة المكتوبة.

ولقد أظهرت الدراسات النفسية اللغوية في السنوات الأخيرة أهمية مرحلة الطفولة المبكرة في بناء النمو اللغوي للطفل، وأنه يتوقف أصلاً على محيط لغوي سليم ونشط، ومواقف مشجعة على التعبير

والتحدث والطلاقة في الاستفسار والاستمتاع، والاستعداد المبكر لاكتساب المهارات اللغوية الأساسية بصورة صحيحة، وذلك لأن السنوات الخمس الأولى تعتبر مرحلة الأساس في تكوين القدرة اللغوية للطفل واكتسابها، فالسن من مرحلة ثلاث سنوات إلى خمس سنوات تعدّ من أخصب مراحل العمر في بناء شخصية الطفل وتشكيلها، وتكامل أبعاد نموه الأساسية من الناحية اللغوية والجمالية خاصة، حيث يستوجب بناؤها وتكوينها تكويناً سليماً بطريقة ذكية في الأسرة وفي الروضة، فهي من أخصب سنوات العمر إذا استثمرت بتغذيتها بإعداد برامج مشوقة بالمكتبة، لتعليم مهارات القراءة المعتمدة على بيئة فنية ثرية تستخدم الفنون المختلفة من تمثيل وموسيقى وفيلم ورسم وربطها بالكلمة المكتوبة وتعليم أصوات الحروف استعداداً للقراءة.

هذا ويجب مراعاة أن ذكاء الطفل ينشط بتفاعله مع بيئته المحيطة والمرتبطة بها ولذا وجب التأكيد على أن تستشف برامج المكتبة الفنية الهادفة لاكتساب مهارات القراءة من بيئة الطفل ومعايشته لحياته اليومية داخل حدود أسرته والمجتمع المحيط به في الروضة والمكتبة.

الإبداع الفني والقراءة :

إن الهدف من وضع أي برنامج في المكتبة للتعامل مع الطفولة المبكرة يجب أن يركز بالضرورة - بجانب التنمية اللغوية للطفل - على إيجاد خطة متكاملة لممارسة التدريب على استخدام الموسيقى والأغاني والرسم والتصوير، ليتمكن الطفل من اكتساب المهارات الضرورية في مجال القراءة، وذلك باختيار ألوان جيدة من شعر الأطفال يقدم في شكل أغنية للطفل من خلال الإذاعتين المسموعة والمرئية، وما تشمله من حركة وإيقاع وموسيقى تصويرية، ومناظر طبيعية، ومؤثرات ضوئية ولقطات مكبرة، ودمى وعرائس تتخلل الأغنية، وأطفال يضحكون ويمرحون، تخلق معها جمهوراً من الأطفال فاهماً ومتذوقاً، مع مقابلة هذه المجهودات ببرامج للشعر المكتوب والمنشور بعناية، وإخراج مبهر وورق مبهج وغلاف وصور ورسوم ولقطات وألوان زاهية، وبنط للكتابة مكبر، وتعبير بالرسم والألوان مما يستثير الطفل ويشوقه إلى قراءة هذه الأغنية المكتوبة وينمي ميله الفني. ذلك لأن للتسجيلات الصوتية أثراً مهماً في تحقيق مهارة القراءة للأطفال، شريطة أن توفر المكتبة برامج جيدة الإعداد والإخراج والتقديم، ومصاحبة الكتاب لكل تسجيل.

كما يمكن الاستفادة من الوسائط الاتصالية ذات الجاذبية، مثل التلفزيون والفيديو في تحريك اهتمام الطفل بالقراءة.

إن الاهتمام الجاد بمرحلة الطفولة المبكر بمكتبات الأطفال واعتبارها فرصة ذهبية لاكتساب مهارة القراءة، تتأتى بوضع برامج فنية متنوعة، تربط الكلمة والجملة المكتوبة بالشكل الفني، أو الحركة الإيقاعية والتمثيلية أو الموسيقى والأغاني.

وللوصول إلى الهدف المنشود من تعليم وتنمية القراءة من خلال تطويع وتطوير الإبداع الفني الفعال لدى الطفل يجب مساعدة الطفل على:

- أن يكون مبدعاً من خلال الفنون كالرسم والموسيقى.
- أن يكون معبراً من خلال الفنون كالتمثيل والموسيقى التوقيعية والرسم وعمل النماذج.
- أن يميز ماهو جميل وليكون للجمال أهمية في حياته.
- أن يعمل على تطوير رغبته في المشاركة بالفن.
- أن يقدر على التعامل مع أدوات الفن والموسيقى.
- أن يعمل على تطوير شعوره في الأساليب اللغوية.
- أن يقدر على التطوير في استخدام اللغة بصورة مبتكرة لإعداده للقراءة والكتابة والمهارة الرياضية (الحساب).

برامج المكتبة الفنية :

لابد من إعداد البرامج التي تبنى على مهارات متعددة تساند وتقوي برامج القراءة وتشتمل على:

مهارات الاتصال ومنها :

اللغة : وذلك باستعمال اللغة في فروع الفن المختلفة المسموعة والمرئية، بألفاظ ومفردات لغوية، وبصورة فعالة ومؤثرة، مع اختيار كتب جذابة تتميز بقصر الجمل وصحتها، والتأكيد على المفردات الجيدة من خلال الأنشطة الفنية المختلفة.

مهارات حركية ومنها :

الحركات الإيقاعية : مثل القيام بحركات تعبيرية، وحركات إيقاعية بصورة فردية أو جماعية، والإكثار من الحركات الرياضية المتناسقة والاندماج مع الموسيقى. فإن أغنية أو تمثيلية أو عرضاً للعرائس يمكن تطويع كل منها لنشاط القراءة.

مهارات إبداعية : مثل :

على الورق : واستعمال المطرقة وإدخال أشكال الحروف في فتحاتها، والقيام بأعمال بناء الكلمات من الحروف باستخدام المكعبات والبلوكات بأنواعها.

ولتطبيق مثل هذه البرامج بالمكتبة لابد أن يسمح للأطفال التعبير عن أنفسهم بحرية. ومن خلال مختلف الوسائل مثل الرسم وتشكيل الصلصال إلى حروف، ثم تكوين الكلمة، حيث إن التطبيق والتنفيذ الجيد

للبرامج يسعى لتطوير قدرات الطفل العقلية واللغوية، ومهاراته الفنية، وتطويعها للقراءة بصورة نظامية، ومن خلال ألعاب مباشرة وأدوات مصممة خصيصاً لهذا الغرض، مع الأخذ بعين الاعتبار رغبات الأطفال الصغار، والتنوع المستمر المتجدد، ومراعاة قصر المدة بين برنامج وآخر لكي لايمل الطفل.

مكتبة الألعاب ومهارة القراءة :

ولأن الطفل ملول بطبيعته، وفي هذه السن المبكرة خاصة - ماقبل خمس سنوات - فمن المستحسن إنشاء مكتبة خاصة بالألعاب وقد يطلق عليها مكتبة الألعاب Toys Library لأطفال ماقبل المدرسة وفق أنماط ومواصفات تساعد على ربط الفن بالقراءة عن طريق توفير تلك الألعاب وتشمل:

ألعاب الاستكشاف :

مثل نماذج للسيارات والمركبات عموماً تركّب وتفكّ، وتصحبها كتب تشرح بالصورة والكلمة المكتوبة مدلول كل لعبة أو نموذج ومثل المكعبات الخشبية لكل حرف وطبع أشكال الحيوانات، ثم ربطها باسم كل حيوان بتجميع الحروف المكونة لاسمه، وتوفير لوحات العدد من ١ إلى ٩.

ألعاب بنائية تركيبية :

مثل ألعاب الليجو المتنوعة تركيباً ولوناً وشكلاً وتوفير الكتب التي تشمل مدلولها بالكلمة المطبوعة.

ألعاب موسيقية :

مثل الأدوات الموسيقية المتنوعة المستخدمة في روضة الأطفال؛ بجانب اللعب الموسيقية التي تصدر أصواتاً جميلة عند النجاح في تكوين كلمة معينة.

ألعاب الفن وأشغال يدوية :

أدوات الرسم والأصباغ والأوراق الملونة، والأقلام والفرش والطباشير من أنواع مختلفة، وقوالب للطبع تعبر عن أشكال تصحبها مدلولها بالكلمة المطبوعة.

أدوات وألعاب لتعلم اللغة :

لوحات ومربعات الصور، ومحاولة لايجاد صور الأشكال المتشابهة، والحروف المجسمة، ولوحات الحروف، ومكعبات للكلمات والحروف.

ألعاب النقود :

نماذج من النقود المعدنية والورقية وعلامات التسعيرة وتوفير أختام لطبع النقود.

ألعاب الأعداد :

مكعبات تركيبية، ولوحات وعيدان مختلفة الأشكال والألوان، ولوحات الصور، ولوحات مربعات ذات فتحات مختلفة للأرقام، وأرقام بلاستيكية، وصور لأعداد مختلفة مجسمة من (١ - ١٠) ولوحات مثقوبة للأرقام، ولوحات العدادات وأشكال هندسية.

برامج المكتبة لتنمية القراءة :

إن قدرة مكتبة الألعاب على استثمار قدرات الطفل العقلية والفكرية لتطويع تلك القدرات وتوجيهها نحو اكتساب مهارة القراءة تتأتى بتناول أخصائي مكتبة الألعاب الجوانب التالية:

عند إعداد برامج الإعداد للقراءة وتنميتها مثل:

– برامج لتدريب الطفل على حسن استخدام حواسه عن طريق استغلال الأنشطة الفنية المختلفة لتدريب الحواس من بصر يميز الجمال في أشكاله المتعددة، واللمس للنماذج الفنية، والسمع للأغاني والموسيقى، والتسجيلات للقصة والتمثيلية والشعر والإيقاعات الموسيقية المختلفة مصحوبة جميعها بربط الكلمة المكتوبة والجملة القصيرة المكبرة بتلك الأنشطة.

– برامج لتدريب الطفل على التصنيف للأشياء، والمقابلة والترتيب، وتوسيع مفاهيمه حول الأشكال والكميات والأوقات والألوان والأطوال وإدراك العلاقات بينها.

– برامج لتنمية خياله، وتطويره بالتدريج ليكون قادراً على التمييز بين الحقيقة والخيال.

– برامج لتكوين روح المرح والفكاهة لدى الطفل، ومصاحبة الكتاب للنوادر المرئية والمسموعة ليكون إيجابياً مع الحياة.

– برامج توضح مفاهيمه وحبه للكلمة المكتوبة، وقدرته على التمييز بأن الكلمة المكتوبة لها مدلولها وطريقة استخدامها، وإثراء ثروته اللغوية في أحاديثه ومحاوراته وممارساته لفروع الفن المختلفة وكثرة أسئلته وحفظه للأناشيد وسرده للقصص.

– برامج تشجعه على استعمال الكتاب بمصاحبة الكلمة المنطوقة أو المجسمة، عن طريق الصور أو النماذج.

ولكي ينجح أخصائي مكتبة الأطفال في تحقيق الترابط بين مجالات الفن المتعدد، وتنمية مهارة القراءة لدى الطفل الصغير عليه أن يراعي في برامجه ملاحظة الطفل في التعبير عن ردود فعله الشخصي تجاه خبراته الخاصة في الحياة والتآلف مع أدوات الفن والكلمة المطبوعة وطريقة استعمالها بمهارة، للربط بينهما ولتنمية قابليته الإدراكية، ليشكل موضوع تعبيره الفني، ويسمح أن تكون أغلبية موضوعات الفن من تصور الطفل وخياله، لا أن تفرض عليه فرضاً.

ولا بد من أن تكون تلك البرامج مرنة تتكيّف مع ظروف الأطفال من ناحية، ومتطلبات توصيل المعلومة من ناحية أخرى. فمثلاً برنامج أخصائي المكتبات الخاص بالعلوم لتعريف الطفل بظروف الطبيعة المحيطة به، فلا يحدد لتلك البرامج وقت معين ولكن ينتهز مثلاً فرصة سقوط الأمطار فيعد ورشة لإنشاء الأغاني حول المطر مصحوبة بالكلمات المطبوعة والصور المعبرة عن استقبال الكائنات الحية من حيوانات ونباتات للأمطار. بذلك يوجد الترابط بين المشاهدة والاستماع والاكتشاف واكتساب مهارة الربط بين تلك

الجوانب والكلمة المطبوعة.

ومن أهم الأنشطة لتحقيق برامج بالمكتبة للطفولة المبكرة استخدام الموسيقى والأنشطة الإيقاعية فالأنغام الموسيقية والحركات الإيقاعية تعطي نوعاً من المرح والسرور للأطفال مع سرد القصص المشوقة ومصاحبتها بالصور الملونة والكلمات المنطوقة المطبوعة. فإن الاستماع والمحادثة المشوقة والأسئلة الكثيرة الفضولية، والمحاورة ذات الطابع المرح بين الأطفال وأخصائي المكتبة، وسيلة للتعبير عن أحاسيسهم ومشاعرهم، وفرصة لإثراء ثروتهم اللغوية بالاستمتاع بالتحدث وسرد القصص المصورة ومشاهدتها ومتابعتها ومناقشة محتواها وأشخاصها.

ولأن الطفل فضولي بطبعه ومتشوق للخبرات الجديدة وجب على المكتبة إشراكه في مناقشات بصورة جيدة لئلا يصبح مجرد متلق للقصة بل متذوق لها وقادر على سردها ثانية. كذلك الاستماع بدقة ومعرفة إلى أي مدى يستطيع أن يميز بين الأصوات ويميز بين الفروق البسيطة في اللون والحجم والشكل والمسافة، ومعرفة مدى ولعه تجاه الرموز المكتوبة والقراءة والكتابة والحساب.

ولضمان نجاح برامج المكتبة لتنمية مهارات القراءة للطفل الصغير واستخدام الفن بوسائله المختلفة مع الكلمة المكتوبة للوصول إلى الهدف المنشود نؤكد على مراعاة مايلي:

- تعرف الطفل على الطبيعة المحيطة به من حيوانات ونباتات والتحدث عنها بطلاقة بصورة فعالة حيوية.
- التعبير عن لوحات مصورة والتحدث عنها.
- قراءة القصص وحفظ الأناشيد.
- الرسم الحر الموجه والقدرة على استعمال مختلف أدوات ومواد برامج الرسم.
- تكوين الميل للكتب المصورة والصور المفردة حتى تتطور تصوراته وتخيلاته وإدراكه للأشياء الجميلة وتوفير اللعب والمستلزمات الخاصة بهذا السن.
- الاستمتاع بسرور في التعبير من خلال الغناء واللعب بآلات الموسيقى بيسر وسهولة.

مما سبق نخلص إلى أن استخدام فروع الفن المختلفة، ووضع الكلمات والجمل والمعاني في قالب فني محبب متنوع من موسيقى ورسم وقصة وفيلم وشريط تسجيل وكتابة، سوف تحقق تنمية القراءة عن طريق الوسيط الفني، مع توفير الكتب الشيقة المصورة والمجسمة والألعاب المدروسة بأنواعها المختلفة، مع مراعاة المكتبة عند وضع برامجها لتطويع هذه المواد جميعها لخدمة الطفل الصغير، وذلك لتكوين شخصيته المتميزة بمكوناتها وقدراتها وتذوقها للفن واستمتاعها بدنيا القراءة واللعب المدروسة، وفق أنماط ومواصفات تربط الفن بالقراءة. ■